



الهيئة المصرية العامة للكتاب



رساء وطني

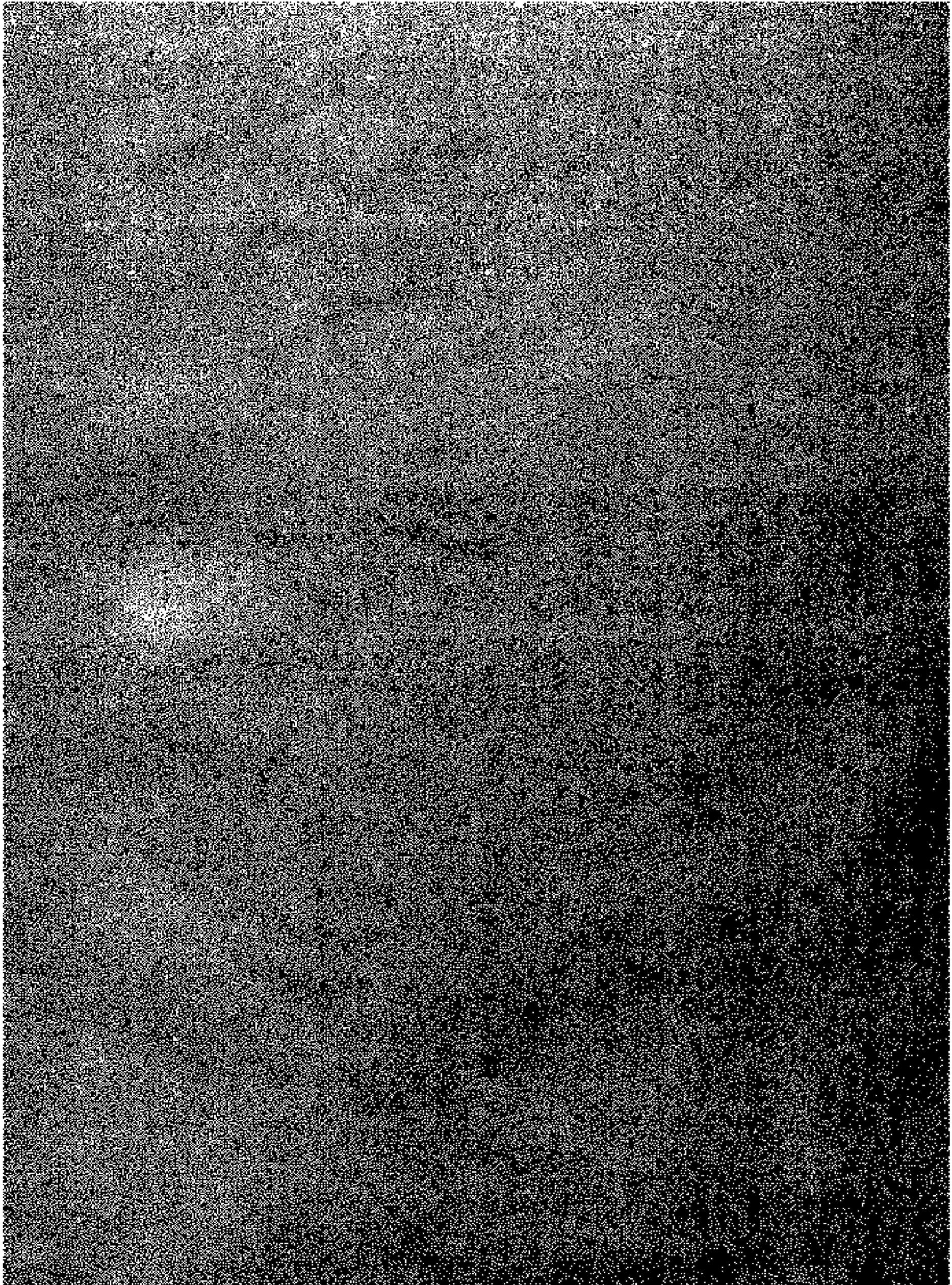
مع ثلاث قصص جديدة



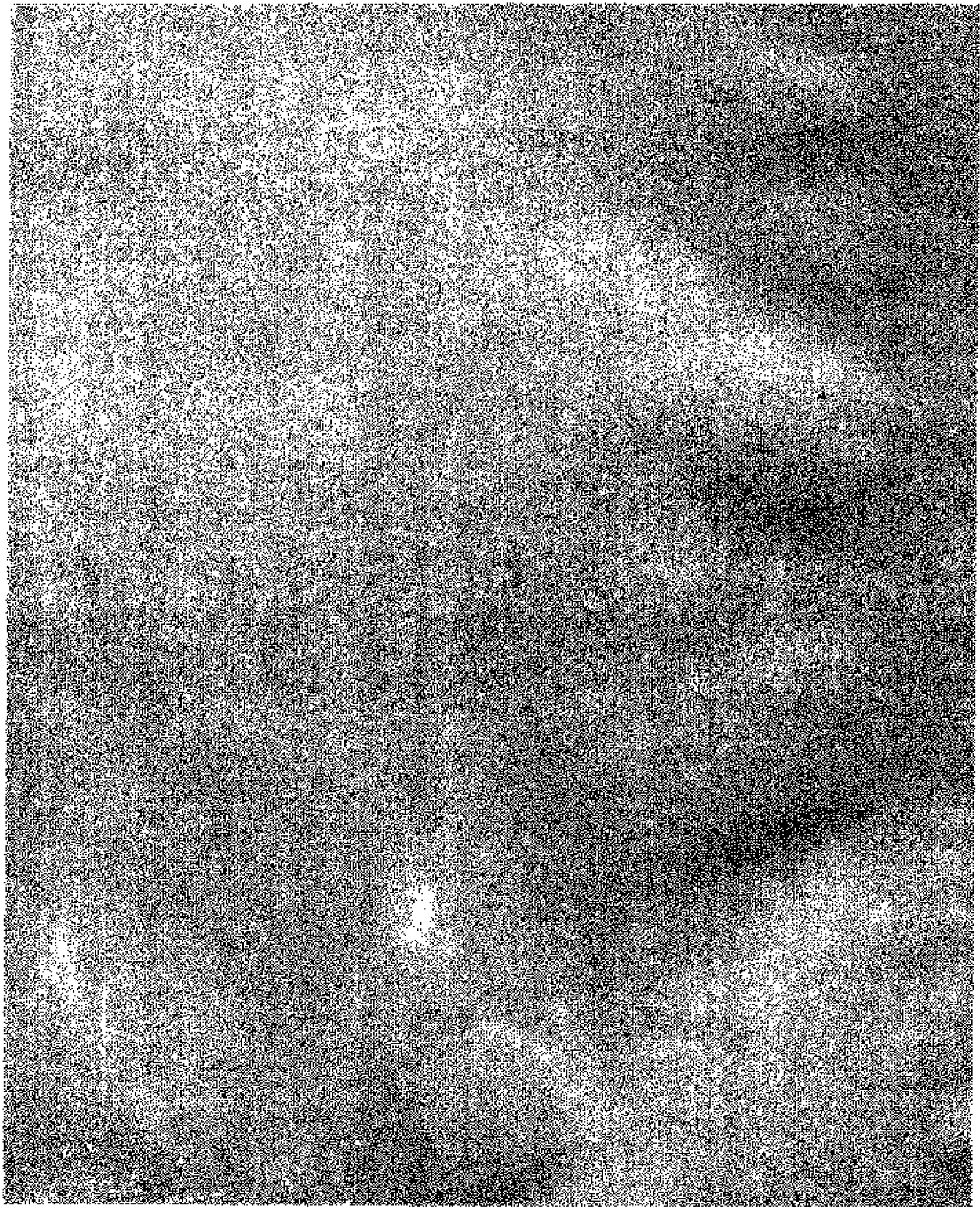
Bibliotheca Alexandrina



0147578



مؤلفات پرجی حق



يحيى حقي

القصص ٣

رساء وطني

مع ثلاث قصص جديدة



المركز القومي للمكتبات والكتب

١٩٩٤

مقدمة

لأزال أذكر كيف كانت حارتنا الضائعة وسط القاهرة تستيقظ
فجأة ذات صباح من سباتها وغفلتها على نداء غريب يتردد في أرجائها،
لأنسمعه إلا مرة كل عام ، ولا نفهم معناه :
عوف الله . . عوف الله . .

« يزعم البعض أنه تحريف لاسم أوفيليا إلهة الماء عند
الإغريق » فنعلم أن النيل قد وفى بوعده وفاض بالخير والبركات
على الوادى السعيد ، وتنبعث فينا نحن صبية المدينة — ولا شأن لنا بالزرع
والرى — هزة فرح لانعرف سببها، ونجرى إلى الجسور نحفل بهذا

الموج الأحمر الداكن الذى يشع بالحياة والقوة ، يتدفق فى خيلاء
وعنف إلى البحر البعيد .

ويتقدم العمر ، ويزول سحر الأساطير ، وينتفش الإحساس
القطرى ، فإذا بنا — مع ذلك — كلما وقفنا على الجسور
وتطلعنا إلى الجنوب ، أحسنا بأن أرواحا وقوى مبهمة تهب علينا مع مياه
النيل . وكنا نجد تفسيرها إذا مررنا — والليل قد مضى أكثره — على
عمارة تريد أن تقوم ، ووصلت إلى آذاننا تلك المقطوعات الحزينة
العميقة ، تنبعث من بين أكوام الحجارة حيث يضطجع الفعلة —
وجلهم من أبناء الصعيد — حول النار يصطلون ، إذا كان الوقت
شتاء ، أو يتنسمون الهواء العليل ، إذا كان صيفاً ، ويرددون أغاني
لهم يتداكرون بها وطنهم وأهلهم وأحبائهم . وهم ساهرون رغم
تعب النهار ، كأنما تؤرقهم الذكرى .

هؤلاء هم الصعايدة : قوم جاءوا من بلاد نائية ، حرها شديد ،
وزرعها قليل ، تغمر مياه النيل أراضيهم — الحياض — كل عام ،
فيبطل العمل ، ويحلو الاجتماع والسمر على جسور النيل . ثم تتخطفهم
الهجرة إلى القاهرة والإسكندرية وغيرهما من مدن مصر ، فيترك
الأب أبناءه وزوجه ، والابن أمه وأباه ، والعاشق حبيبته ، طلباً للقامة
العيش . . حياة مخفوفة بالشقاء والترحال والفراق ، تلهب إحساسهم
وتذكى عواطفهم . ومن ثم كان لأهل الصعيد روح خاصة ذات عمق
وجمال وفن أصيل

ومن تبل هؤلاء القوم أنهم في عز كفاحهم للحياة لا ينسون الغناء ،
تتفجر قلوبهم بأغان ساذجة صادقة ، تمثل بلادهم وسحرها وفقرها ،
وأبراج الحمام البرى المنتشرة فيها ، والنخل باسقات . والنيل عند
فيضانه يفصل القرى فتصبح كالجزر العائمة ، وواديه الضيق تحده
تلال تقبض عليه قبضة فكى كلب صيد على الفريسة

تحدث أغانيهم كيف يلجأون لهذه التلال هرباً من رجال الحكومة ،
فتتعبهم الهجاة السوداء . . . كما تحدث عن حماسهم للأخذ بالثأر ،
والدفاع عن العرض ، وشوقهم وحنينهم للأهل والوطن والأحباب ،
وحسرتهم على أيام الحياة تنقضى في تنقل وفراق . وتنشد هذه
المقطوعات بأنغام حزينة كلها أنين يلائم معانيها بساطة وحرارة
ولوعة .

ولا تخلو عربات الدرجة الثالثة في قطار الصعيد من طلبة تناقلها
الأبلى حتى تستقر في يد خبير ولهان . فيخيل إليك أن الوادى كله
يتغنى معه ، ويتلقف أناشيده ، وأنها تنزل إلى ثراه كالحب وقت البذر ،
فتكتب لها حياة متجددة أبداً لا تنفى . . قد أصبح للصعايدة قطار —
أبو عجل حديد — يعرف باسمهم ويذكر في أغانيهم ، هو القطار الذى
يرح الإسكندرية في منتصف الليل ليلاحق راكبه أول قطار يقوم
في الصباح المبكر من القاهرة للصعيد ، وإذا ذكرت الإسكندرية ذكر
معها سيدى مرسى أبو العباس صاحب المقام العالى ، وله في قلوب
الصعايدة إجلال أيما إجلال .

وهناك في قلب الصعيد النأى عند « البلينا » بلدة صغيرة يصل
إليها قاصدها بعد أن يعبر النيل من بر السكة الحديدية ، هي بلدة
مزاته ، موطن الراقصة ناعسة . والفن الصعيدى مدين لهذه البلدة
وتلك الراقصة . فلا تكاد تخلو مقطوعة من ذكر مزاته وناعسة .
فمزاته وناعسة رمز الوطن والأهل والأحباب وأيام الحنا .
وها هي بعض "تارات من الأغاني الصعيدية (١) ..

(١)

يا باجور الساعة اتناشر	يا مقبل ع الصعيد تارى يابوى
سلم لى ع الحباب	و محمد ولدى »
يا جريد النخل العالى	طاطى ورد السلام »
سلم لى ع الحباب	آيا غايب لك زمان »
تحسبى اليسوم نسيتهك	دا البعد الى جفاك »
خايف أروح مسزاته	ناعسة تتقل على »
ضمينى وأنا أضمك	ليل الشقا طويل »
شمس العصر تارى غابت	يا لى بلادك بعيد »
فرش الحمام على الميه •	فرحسوا له الصيادين »

(٢)

خاين يمازىنى وديت حبيبى فسين
ولا جـواب جانى شيعت له جـوابين

(١) هذه الأغاني من جمع صديقى الأستاذ محمد عصمت •

سوده وعاجبى	عيون حبيبى يانس
نجم السما العالى	يشهد علينا الليل
ولا كان على بالى	يوم السفر يابنات
ياو مقام صالى	مرسى يابسو العباس

(٣)

عدينى يا معسداوى	عدينى أنا
مد السقالة يا ريس	معرفش العوم ياعم أنا
عدينى أنا ومحبوبى	والأجره على أنا
محبوبى فى البر الثانى	عنده مونة سنه
قدام بيت اللى بحبه	شجره وضله ومعنى وهوا
يا رايح على مزاته	حسود ع البلىنا
تلقى بنات عبيد الله	ناصرين السلطنه
وعمار يابو حمادى	وزمان البلىنا
باللى حبيت ولا طللش	صمان على أنا
ومسدام خالى السوابق	على أيه تنلرنى ياعمده أنا
ناعسة نزلت فى القارب	ماتسم ساعة ياهوا

..

وأخيراً نورد تلك المقطوعة التى خلدها الدين جندتهم « السلطة »
العسكرية الإنجليزية بأنواع من القسروايجبروت فى الحرب العالمية الأولى
زاعمة أنهم متطوعون . وكان سيد درويش يقدرها ويقول عنها :

« الطبيعة فوق الفن » ، ويغنى منها البيتين المشهورين ويرددهما وهو
ييكى ، يرحمه الله

على يوم ما رغبوني	لم كان لى مرام
وعطسوني الثلثاياه	وقالوا لى كتبوك جمال
وانا كللى مااقول التوبه	ترمينى المقسادير
وعسد ومكتوب على	ومسطر ع الحبين
ياهيمة نحسبرينى	جمالى قتل ياسين
قتسلوه السودانيه	من فوق ضهر الهجين
ويهيته فى الهماكم	شلت واحد وكيل
احكم بالعدل ياقاضى	قدامك مظالم
حوج الطربوش على شقه	حكم باربع سنين
سنتين فى السجن العالى	سنتين فى الزنازين

. . . .

وكان من حسن حظى أنى عشت فى صدر شبانى سنتين فى
الصعيد ، فأنجح لى أن أطل على بعض أسرارہ . ثم تغربت عن مصر
وكان خليفاً بى أن يشغلنى الحديد عن القديم ، ولكنى وجدت نفسى
أجتر على مهل ذكرياتى عن الصعيد ، كأننى لم أفارقه . وأنت لا ترى
الشيء حق رؤيته لم إلا إذا غاب عن بصرک . فجرت يدى بقصص
شئى أجمع بعضها اليوم فى كتاب واحد ، بعد أن طال على تشتتها
الزمن ، وقصصت أن أبقي نصها — إلا فى القليل النادر — على حاله ليبقى
لها عطرها الأول .

وأحسب أن الذي حركنى اليوم لتقديم هذا الكتاب للقراء ،
هو أن وطننا المحبوب الذى كان يؤرقنى مآعانا من مظالم ، هى التى
أوجت إلى هذه القصص ، قد أذن الله له سبحانه وتعالى بمنه وإكرامه أن
يفكك أغلاله ، ويحكمه أبناؤه ، ويتم له العزة والكرامة ، ويتطلع
إلى مستقبل مجيد . .
عوف الله . . عوف الله . .

البورسجی

الفصل الاول . بلاغ ورا بلاغ

١

دخل حسنى أفندى مكتبه : بخطوته سريعة ، جبينه معقد .
وأخذ - أى خطف - البلاغ من يد الغفير ، وانفجرت من بين
شفثيه لعنة ضاع لفظها طى حداثها . يستدعيه الأمور على عجل ،
فيقوم من وسط عشائه مضطرا ، بعد نهار قضاءه على ظهر الحمار .
وأخذ الغفير يرقب عيني (حضرة المعاون) تجرى أثر السطر ،
وتلثني تلاحق تاليه ، فإذا به يرى التقطية تخف ، وزالت عن الخدين
خطوط قليلة ردت التكشيرة ابتسامة تطل . وقال الغفير فى نفسه وهو
بلىح ريقه :

الحكام كده .. ياما اسرع غضبهم .. ياما اسرع رضاهم !
واستراح حسنى فى جلسته ، واستقام ظهره وأمسك البلاغ
بين يديه ، وباعده يتفرج برؤيته ، ثم بدأ يتلوه على نفسه فى تمتمة غير
مسموعة . كلما نطق بكلمتين رد عليها بهزة من رأسه ، تصحبها
تلعية من حاجبيه ، وشاركها رجله اليمنى . فهى - من تحت المكتب -
تقرظ كل تلعية بنقرة .. ونغم تعليقاته والبلاغ بضحكة أمالت
رأسه ، تخرج من وسط الحلق ، ثم إلى الأنف ، وقد تعود إلى الحلق
ضحكة فاحشة ، خليعة غجرية .

وكان الغفير قد فهم منذ زمن أن حضرة المعاون : « عما يتمسخر
على البلاغ . ما هو العمدة مش ولد مدارس » . ومال بقلبه ضد العمدة
« بلدياته » مع المعاون الغريب ، رغم شخطه ونظره . « وابتسم هو
أيضا ابتسامة ذليلة كلها تملق :

— دا البلاغ اللى ح تقوم القيامة عشائه ؟ داهية تسم القفا
ياسيدى .

ضحكة أخرى أخف . وأخذ يعيد القراءة بصوت مرتفع :
فيها أنه يتلوق السخرية من جديد ، وفيها أنه يتفكه بصحبها كلها على
رأس الغفير الواقف أمامه كاللوح . ويشمله بهكمه لتكون لذته
مزحوجة :

« ساعة تاريخه بمرورى من بحرى ، حسب أوامر معادة اليك
المأمور . ما أشعر إلا ورأيت سلمان عبد العال ، فما كان منه إلا أنه

أخبرني أنه سمع بالاشاعة أن ناظر بوسطة مكتب الناحية ببلدنا ،
عباس أفندي حسين ، اتهم على محرومة بنت الشيخ مبارك حال
كونها رايحة تشتري مترجاز من دكان الشيخ رمضان ، وأن المذكور
أعلاه اتهم على فرحانة بنت المعلم رضوان بعد صلاة المغرب ،
فانسرعت وجرت منه ، لاسيما أنه في الطريق العمومي . وبسؤالهم
لم واحد منهم اشتكا خوفا من القولة وكلام الناس . وللأهمية للجميع
مرسلين للمركز أفندم ...

عمدة كوم النحل
عبد السميع وهندان

حاشيه - عباس حسين أفندي عاصي على أوامر الحكومة وشيخ
الخفر ، ولم رضى ينزل معاه

عمدة كوم النحل
عبد السميع وهندان

لم تكن فصاحة البلاغ - ففيه « لاسيما » - هي وحدها سبب
ضحك حسنى . بل لم يستطع - وهو المعاون القديم في الكار -
أن يتمالك نفسه إزاء مكر العمدة ، يبدو في مثل جديد . ولكنه هذه
المررة مكر صبياني يحاول أن يخبئه عبد السميع وهندان بين السطور .
ففي أول البلاغ (أوامر سعادة البليك المأمور) وفي آخره
(للأهمية) ... رجل خدام حكومة يخلص نفسه من المسئولية ،
ليس له يد ولا إصبع ، ولكن أين من يقرأ هذا البلاغ ولا يفهم

أن بين العمدة و (ناظر بوسطة الناحية بلدنا) حزازات ، أو بتعبير
العمدة نفسه : « حقاظات ، وخصومات » ... ليس في البلاغ
شكوى من أحد المحبى عليهم .. والمرسلون للمركز ، والوقت ليل ،
شهود قد يكونون غير متطوعين .. وحسنى ليس في حاجة لهذا البلاغ
ليقهم ما بين الرجلين من خصومة . فهو يعلم أن ناظر البريد يسكن
أحد منازل العمدة ، وبسبب ما شب بينها حول هذا المنزل من جدل
كله عناد .. العمدة يصر على أن يخرج من داره هذا « الأجرى »
الرجال ، ليس له عشيرة تلمه ولا بلد يقره . ماهيته ؟ يدفع مثلها
حلواناً للصراف ولا يبالى . والموظف المتعاطف ببلدته وطربوشه ،
وسلطة الوظيفة وراءه ، يتكبر على هذا الفلاح الجاهل ، الخلف
مكانه وراء الخامسة لا بين الناس .. يجب أن ينهزم أمام الحكومة .
ولم يكن حسنى لى بعد كيف جاءه العمدة من قبل شهر يشكو .
عباس ويطلب إخراجه من المنزل على عجل . ولمح له أنه يستطيع
بفضل الوسائط أن ينقل خصمه من البلد كلها ، لا أن يخرج من
الدار فحسب . فوعده حسنى بكلمتين حلوتين ، أن يتخذ له غرضه ،
وهو ينوى أن يصلح ما بينها . وانتبه فرصة وجوده في كرم النحل
بعد يومين ، وعرج في طريقه من المحطة الى البلد على مكتب البريد .
ولم يكن رأى هذا الشاب العنيد من قبل ، ولم يشأ أن يستدعيه إلى
دوار العمدة ، حتى لا تكون « الكرامة » سبباً للرفض ... وقف
حسنى أمام الشباك ، وأمسك بأحد أعمدته ، وأطل من بين حاضنتين :
يا عباس أفندى ؟

فواجهته رأس على كتفين تقبع فوقها كالياطرة كلمة (بومسة)
خيطت من قماش أصفر بخط قبيح .. ورأى وجهها مطاولا يخرج
منه بوضوح أنف دقيق . فتحناه ضيقتان ، تحتها شفتان رقيقتان .
فوق الحبين شعر أسود فاحم ، زاد إهمال صاحبه له من جمال حلقاته
المشبكة .

يا عباس أفندى ! كنت عاوز أكلمك فى كلمة صغيرة .
أفندم .

مش من صالحك تخافى العمدة ، أنت راجل منا وعلينا ..
أنت أنحونا وأنا أقدم منك وأفهم الراجل دا ... دا راجل طيب لسه
عيل . الواحد يضحك عليه بكلمتين بيتى زى العسل . يهب يهب
وبعدين يتلقى

— دا لسانه زفر ...

لا ... لا .. أنت غلطان

وأستمر الكلام بين الوجهين ، يتقلان كل حين وآخر مكانها
بين قضبان النافذة . ثم لان الحديث ، واختلطت أعمدة الحديد
بالابتسامات والضحكات ، ومد عباس يده فصافحة المعاون .. ولما عاد
إلى المركز ظن أنه قضى على النزاع وأراح نفسه ، بالأنخص — من
تحقيق شكاوى العمدة فى المستقبل ...

فإذا هذا الأمل يهدمه الغفير الواقف أمامه ..

لا يستطيع هذه المرة أن يصرف المسألة « حياً » أو يضحك على

عقل الاثنين بكلمتين من كلامه المخلو . فهذا بلاغ به رقم وفيه مسئولية ولكنه لا يدري لماذا لا تطاوعه نفسه على السير في تحقيقه ؟ فليس من شك أن وراءه ضرراً لهذا الشاب .. ولكن ما الذي يربطه به ؟ وماذا يهيم منه ؟ في قرارة قلبه ميل خفي .. هل مبعثه حلقات الشعر المشبكة ؟ أم إحساسه بالشفقة نحو هذا الوجه المدفون في غرفة مظلمة رطبة في بلد حقير ؟ .. عندما صافحه من بين ثنايا العوارض الحديدية نحيل إليه أنه يمسك بيد سجين . .

و « كلفت » حسنى التحقيق بمهارته وصرف الناس ، ثم قام إلى التليفون وطلب الصراف وكلفه أن يرجي عباس أن يكلمه . وبعد قليل كان في صوته صداقة غير مفضوحة . وثبات وتأكيد . ويرن في السماعة على أذنه صوت سريع اللهجة ، محدد الكلام . مهتاج اللفظ . ولكنه فهم ، ووعد بما كان حسنى يرجوه فيه .

في اليوم التالي قبيل الظهر دخل عليه عباس وهجم على مكتبه ، بتكلم وهو واقف . . عضلات وجهه ترنحش ، محقق اللون . وانفجر لا يتمالك أعصابه ... هو يعلم الشكوى المقدمة ضده .. ماذا فيها ؟ أنه يفعل ما يريد . ولو أراد لفعل أكثر من ذلك . على أن هذا لم يحصل . وماذا فيه لو حصل ؟ إنه يهزأ بأقصى ما يمكن أن يطلب منه كرد شرف .. أمن أجل المنزل كل هذا ؟ ماذا قال لهؤلاء البنات ؟ هل سب ؟ لبس بسبب . هل سمعه واحد ، واحد فقط ، لا يكون من أتباع هذا العمدة السيء النية ، الخبيث ؟ أو يشهد بأنه كلم البنات

كما يدعى - في الطريق ؟ . المنزل رطب ودون ولا يستحق الإيجار
الذى يدفعه . ان أراد إثباتا يحضر له « الإيصالات » . إنه يقسم بالله
ألف مرة أنه لا يعرف هؤلاء البنسات ، حتى أسماءهن . الشمس
لا تدخل غرفة النوم ، والفيران كالقطط . وهكذا وهكذا . وهو يلوح
بيديه يكاد ينكئ على المكتب ، وأصابت حركته الدواة . فاندلقت
على الدفاتر ، ولكنها لم توقف من حدثه ، ولا قطعت تحديقه حسنى
في هذا الشاب المحموم ، تأسره من وجهه عيناه . لم يكن دفق النظر
فيها من بين العوارض . فإذا به الآن أمام عيني تضيقان وتوسعان ،
لا يستقر إنسانها لحظة . لها بريق غريب . ماؤها يغلى . .

أجلسه حسنى ، ولم يفاتحه بسؤال . وعند انصرافه أخذ من ذراعه
وسار به إلى داره ، وأغلق عليه من « كولونيته » . وتركه في
غرفة استقبال متواضعة ، ولكن كنباتها بأغظيتها البيض وجوها
الهادىء تريح الأعصاب المتعبة . ولما دخل عليه من جديد ، وجدته
يخني وجهه بين راحتيه ويكي بحرقه ونهبة متتالية . فانسحب دون
أن يشعره بنفسه ، لعلمه أن الأزمة لا تنهى إلا بهذا الانفجار .

نما العطف بين قلبيهما ، وأكلا معاً ، وقص عليه حسنى من ذكرياته
وتجاربه حكايات تنسى المحموم . فابتدأ عباس يعود للحياة ، وشكا له
أنه تعب من صحته في الأيام الأخيرة . فهو يارق بالليل ، يشعر في
الصباح أنه يقوم من عمل شاق ، فجسمه مجهد مكسر ، لم يرتو من
النوم والراحة ، أقل الأسباب - بل أتعها - يستفزه الآن على خلاف

طبيعته ، فينفجر فجأة ويهيب . له حدة تعلو درجة درجة حتى يفقد
سلطانه على نفسه ويصبح كلامه خليطاً من صراخ غير مفهوم ،
ثم يهدأ على دوخة تملأ رأسه وتكاد تصم أذنيه .

أمس جاءت هذه الدوخة في الطريق . لا يدري ماذا فعل ؟
وهنا تعلم ونخفض ببصره وصمت . ثم عاد يؤكد أنه لا يعرف الفتيات
كل البلد تعلم عنه الشرف وبعده التام عن المسائل النسائية .
وأكبر دليل هو أن النسائيات معدومة من نفسها بالمرّة في كوم
النحل ، وهي بلد كالحق .

وانتهى النهار على صفاء . وأكد له حسنى أنه واجد حلاً يقضى
على خطر البلاغ . ولما هم يقوم ، شد الضيف على يديه . فابتسمت
له عيناه ولكن ليس في نظرة حسنى الفاحصة ولا شعوره الحساس ،
ما يطمئنه على أعصاب هذا الشاب ، ولا على ما تخبئه له الأيام .

لم يطل صمت عبد السميع وهذان . فبعد أسبوع واحد كان
عباس من جديد موضوع بلاغ آخر . وفي هذه المرة ترك العمدة مكره
وأناقته في الأسلوب ، وعدل عن اللف والدوران ، وكتب بلاغاً
قصيراً صريحاً ، ليس في آخره تحريض . في بعض الأحيان يكون أسلوب
العمد هو أصدق وسيلة للتعبير عن بعض جرائم الريف ، وتكون
ملحاجة الكلام هي الإطار الوحيد الذى يتناسب وما بلجرائم الفلاحين
من صور بدائية . والحادثة الجديدة ، وإن لم تكن من ضمنها ، إلا أن

بساطة الأسلوب ظلت قالباً ملائماً هذه المرة ، لا لتوافقه بل لتناقضه .
فقد تضمن البلاغ الساذج حادثة مشبكة لا يمكن فصل عناصرها .
هي مزيج من التعقيد والبساطة ، من المحتمل والمستحيل ، من العقل
والجنون . ولم يكن غير هذا الأسلوب — الذى يظن أنه آخر ما يصلح
لوصف هذه الحادثة الشاذة — يستطيع أن يلم على الورق — بالبساطة ،
رأساً من غير تطويل أو فلسفة فارغة — ما للحادثة من شتات مائل
الوضع ، متناثر الأجزاء ، مثير للدهشة والعجب ، ومن صميم كله
حزن وفجيعة

عباس عائد في الصباح المبكر إلى المحطة ، راكباً ركوبته فوق
الحسر ، أمامه حقيقته الصفراء مملوءة بالخطابات . يشير دهشة أفواج
الفلاحين الذين يمر عليهم ، لأنه لا يرد سلام من يحبيه منهم .. له
ظل واضح الأطراف متعلق بأرجل الحمار ، وسطه ملتو على الحسر
المائل ، وآخره يتسحب تحته على بعد — كالمراقب الحذر — فوق
الغيظ المجاور . في الجو نسيم مشبع برودة يستلذها الوجه ، وفي السماء
قطع من سحب ، عذاري ، رقيقة الخاشية ، زاهية اللون ممشطة
مرتفة ، تسير الهويناء — متداخلة متفارقة — للتنزه والتمطى في الشمس ،
فهي شفافة مبهتمة ، ليست سودا ولا دكنا ، كأخوتها الحبيات بالمطر
وفجأة رأوه يفتح الخفية ويتناول منها بعض الخطابات ويمزقها أرباعاً
ثم يرميها بذراع مفرودة فتطير في الهواء كالريش ، ثم
يعود من جديد ، والفلاحون يحملون فيه لا يدركون علته . بدأ

بعضهم يضحك .. وجرى آخرون وراء قصاصات الورق ، ثم
اتبعوا وتجمعوا عليه . لا يكاد يقوى على البقاء فوق ظهر الحمار ،
فهو محني بهتز - ورقته ليست منه - إلى الأمام والخلف . عيناه
مريضتان قد انطفأ بريقهما .. وجهه أصفر ، وحالته كرب .

الناظر عيان ...

دا مسوراً ...

رشوا عليه مبه ...

وأحاطوه بالأذرع . وسندوه بالأكف ، حتى أبلغوه منزله ،
وحملوه إلى فراشه .

٣

لم يكن في تقدير حسني أن يتحقق ظنه بهذه السرعة ولا على
هذا الشكل ، فهو لم يتم قراءة البلاغ الجديد حتى ترحم على مستقبل
هذا الشاب . وارتسمت أمامه صورة عباس أمام وكيل النيابة يلاحقه
بالأسئلة ويفتش ثيابه . عله يعثر على نقود سيدعيها - في أغلب الأمر
كذباً - بعض أصحاب الخطابات . فالفلاح يعرف كيف ينتهز
الفرصة . ثم يتلوه مندوب مصلحة البريد بأنواع من الأسئلة الأخرى .
كل هذا وهو مريض ، وحيد ، في منزل مقبض ، في بلد يرأسها عدو
يشعر - وهو على بعد - بشماته .

قصد حسني أن يصل لكوم النحل قبل الجميع . يود لو يستطيع
أن يقطع من الزمن بضع دقائق يخصصها لمقابلة وحديث بينه وبين

عباس ، حتى لا يتداخل أو يقاطعه فيها أحد . ولكنه في القطار هبطت
حماسته وصرح ذهنه في أفكار عديدة ، تبدو أن لا رابطة بينها وبين
البلاغ . ومع ذلك كانت حادثة عباس المحزنة هي اليد الخفية التي
تحرك أفكاره . لا تنجم بها إلا على كل فرع أبجد ، أو ماء آسن .
وصل إلى المنزل وهو متعب ، ليس على لسانه كلمة من كلمات
التشجيع التي جمالت في ذهنه من قبل . فهم من الغفير الواقف على الباب
أن عباس لا يزال في فراشه ، وأن العمدة أبجد نفسه في جمع قصاصات
الورق ، فبلغ عدد الخطابات الممزقة حوالى الأربعين .

وجد حسنى صديقه راقداً في سرير صغير ، في غرفة مملوءة
بالتراب وأسراب اللباب . أمامه منضدة صباح مخربشة كالحة
ذات ثلاث أرجل ، وكرسى واحد . أنعده حسنى وجلس بجانب
النافذة .

ولما رآه عباس حاول القيام . ودلى رجلين نحيفتين يبحث عن
قبابه . العيون التي كانت تلهب رماد قديم .. حركاته بطيئة مجهد .
أين عباس الثائر وحدته ، من هذا الجسد النحيل المحطم ؟ وجهه
في صفرة الليمون ، ولكنه هادئ ، بل حاول الابتسام فبدت على
شفته ابتسامة ذابلة ، ما أبجدت إلا أنها أكلت مرضه .

— أحسن ؟

— أحسن كثير .. والحمد لله .. نمت شوية .. كنت سخن .

— ورينى ..

مد له عباس يده ، فأمال كرسيه وتناولها بكفه لحظة واحدة ،
ثم تركها .
- لا .. حرارتك عادية . ماقيش حاجة .

لمسة اليد هي التي فتحت الطريق . عاد عباس إلى السرير ، وأستند
ظهره على الجدار ، ورفع ركبتيه حذاء صدره وغطاها ببطانيته .
ثم بدأ يتكلم على مهل ، كأنه يتلذذ بالحديث .. مرة من أول الموضوع ،
ومرة من وسطه ، وربما وجاء بالنتيجة قبل السبب . يطيل على هواه
ويقتضب . أغلب الأمر أنه كان غير واضح ولا منطقي في سرد ما
يقوله .. ولو كان أمام غريب لقاطعه بألف سؤال واستيضاح .
ولكن حسنى لم يفتح فمه . ذراعه على حافة تعمد رأسه أحياناً .
حيناه صادقتان مواسيتان تشربان من الحديث . لا لابس في نظرتها ..
هو فاهم . وشاعر بكل ما في قلب محدثه . رغم الغموض والاضطراب
وضياع المنطق والتسلسل . ولم تفتبه نغمة واحدة ، مها كانت خافتة ،
من لحن صديقه .

الفصل الثاني .

عباس . . أصله وفصله

١

نشأ عباس من أسرة كل أفرادها موظفون صغار لم يرحلوا القاهرة . كلهم يؤكّدون أنهم من سلالة عربية (تشهد عيونهم السود ووجهه الضيق الطويل) ، وبعضهم يضيف أنهم من السادات رغم أن سلسلة النسب الغريب التي يحفظونها تنهى عند جدهم الثالث كل ما يعرفونه عنه أنه هبط مصر من طرابلس ، واستقر بالفحامين في تجارة صغيرة قوامها الشاي والبلغ . وعند وفاته أقفل الدكان ، وتفرق أولاده من المدارس على وظائف الحكومة . معظمهم مات بعده بقليل ، وهم في مطلع الرجولة . قطعوا بذلك ماضي الأسرة عن جيلها الحاضر .

ظل عباس لا يرى في هذه التفاصيل سوى حكاية بسمها
ويرويا ولا تؤثر على حياته . إلى أن انتصفت دراسته الثانوية .
فاستيقظت فيه عاطفة من الغيرة كلما رأى — إذا اقتربت الإجازة
السوية — طلبة المديرية الواحدة يجتمعون ويتناقشون في موعد السفر ،
والتذاكر المخفضة للجماعات . وجرح قلبه . هل أسرته نبات شيطاني
عائم على وجه الماء ؟ في نفسه ضعف لشعورها ، بأنه ينقصها — على
خلاف من حولها — جذور قوية تربطها بمكان معين . لإجازته
كلراسته تمضي في منزل لا يستقر في حي واحد ، يصغر ويكبر .
ويطول ويقصر . وأخذ يصبر نفسه . يتلوق دونهم لذة لا يعرفونها .
فهم قد فهم من محادثته معظم هؤلاء الزملاء أنهم ما يكادون يصلون
لبلادهم حتى يخلعوا بلطهم ولا يرونها إلا إذا حان موعد الرجوع .
أما هو فبعد عن هذا الانقلاب وهذه الحياة ذات الوجهين . فبدلته
موجودة كل يوم تنتظره بعد العصر ليخرج يتجول بها في شوارع
القاهرة . له ثلة من الأصدقاء سريعة تنقل الأهواء . مرة في قهاوى
المالية تلعب الطاولة . ومرة في قهاوى أبي الريش تلعب الشطرنج ،
وأحياناً في قهاوى سيدنا الحسين يتعشون بالكباب (اسم الطعمية
في هذا الحي) . ثم إذا جاءهم فرج أول الشهر يتبخثون بضعة
أيام في شارع عماد الدين . هم فقراء لا يحشكم أحدهم على ريال
صحيح ، ومع ذلك يشعرون كأن قهاوى القاهرة وشوارعها وفسحها
ملك لهم .

استمر في دراسته إلى أن اقترب من البكالوريا ، فإذا بنوع
من سوء الحظ أحاط بأسرته . لا يستطيع أن يضع إصبعه على حادثة
معينة ويقول : هي السبب . فالأسر مخلوقات تهبط أحيانا تحت تأثير مرض
خفي غير معروف يمنعها عن السر . أبوه — بنون مناسبة — أرتبك في
عمله ، وأحاله قبل مواعده على المعاش . وأخته غضبت وعادت
للمنزل . لا هذه ولا تلك أثرت في حالتهم المالية تأثيراً جسيماً . ولكنها
فتت — بغير سبب واضح — من قوة تضامن الأسرة فتبعثرت وخرج
عباس — مختاراً — من المدارس يبحث عن عمل ، فوجده في مصلحة
البريد . ولبت في القاهرة زمناً يتمتع بمرتبه بصرفه وهو نشوان في
تحقيق رغبات الصبا المتكتمة . كلما أذاقته شبعاً خلقت بدله جوعاً
جديداً لأنواع مختلفة من اللذات . كالسلسلة المستديرة تأخذ الحلقة
بعنق الأخرى .. ولكن دوام الحال من المحال . وجاء اليوم الذي صدر
فيه أمر نقله : (ناظر مكتب كوم النحل) ...

من ساعة ما حطيت رجلى في البلد ما طقتهاش ، حسيت إني
محبوس .. فين مصر وشوارعها ، وناسها ، وفين الليل مليون نور ،
ونسوان رايحه وجاية ، وحركة .. لكن هنا : أهو الشباك قدامك ..
بص .. تلاقى إيه ؟ شويه طين مكروم ، وناس وسخين مقملين ، وتو
ما يلدن المغرب كل واحد يتلم في بيته .. والعتمة ؟ يا باي من العتمة يا باي
طول الليل حمير تهق وكلاب تعوى .. أول امبارح بجاموسة البحران
ماتت .. قبل ما يلحقوها بالسكين فضلوا يصوتوا عليها ، وهات
بالعلم .. جنازة حق بحقيق . ما نتمش للفجر ..

لم يكن حسنى أقل ضيقاً بالصعيد من محدثه . كل شفاعاته
أن ينتقل إلى بحرى . أطل من الشباك على بيوت واطئة مراصة .
الفقير منها بالجالوص (١) والغنى مبرقش بفتات القين في طوبه التى .
كلها أقزام متراحمة متلاصقة كأنها قبيلة متوشحة ، على رؤوسها
شعر الحمج ، فى تلول هشة من حطب القطن وبوص للثرة ، ووصلت
إلى أذنه صرخات متعالية ، بعضها للإنسان وبعضها للحيوان ،
لا فرق بينها .. حدة الصارخ فيها واحدة . وعناد المتهمر سواء ..

على أن عينه لمحت . من فوق أكوام الوقود خضرة ممتدة .. لا يرى
فيها شيئاً بوضوح . هو حقل فول لم تظهر قروونه بعد . أزهاره فى
مقبل عمرها ، بعضها أبيض ، وبعضها ضارب للحمرة .. كلها تهتر
فى حركة خفيفة . لا يستطيع أن يحس بها من رؤية القرون مها كثرت
بل لا يد أن ترتعى نظراته وتشمل الحقل على امتداده . الحركة تجول
فيه ، مختلفة النمط هنا عما هناك . ولكنها رغم هذا الاختلاف شخصية
واحدة لها سحر . العيدان كلها — فى هزة المرتلين — تشترك فى
أنشودة خافتة معسولة .

فى بعض الأحيان يمر بركوبته ومسط هذه الحقول وتشمله بعطرها
فينسى كل همومه ، وثقاله الصعيد ، وبسرح ذهنه ، ويشعر أن
ما بينه وبين الله قد عمير من جديد . هو أسير الصعيد ، ولكنه مدعن ،
موطد نفسه على الرضا بما فيه . أما عباس فزهرة لا تتزع من أرضها

(١) قطعة من الطين الجاف تستخدم فى بناء بيوت الفلاحين .

إلا بتلف جذورها ، فهي لا تنشبت بعد ذلك في منبت جديد .
لا يقوى على البعاد عن القاهرة : أمه وعشيقته . هو كالنحلة تستمد
حياتها من زحام الخلية ، وإن كتم أنفاسها . فإن وجدت في وحدة مائت
ولو كانت في أطيب مرتع وأرغد حياة .. وعميت عيناه عن ثروة الصعيد
في سمائه وحقله ، وسمرت على أكوام الخطب .

٢

« والأدهى من كده أن دى أول مرة ألبس فيها بدلة البوسطة الملعونة
دى . حامل أفندى بالكذب . لا طلت عنب الشام ولا عنب اليمن .
عمر الفلاحين ما بصوالى وأنا فى البدلة الصفراء دى ، زى ما بيصوا
باحترام لمعاون دودة حقير ، ولا كاتب صحة أصله مزين علشان
لا بسين بدل . كلهم يعرفونى . لكن ماشفتش واحد ، بلاش أنكنت
وياه ، أتكلم معاه . العبددة راجل جلف زى ما أنت عارف . حتى
الصراف هنا من طرز زمان ، عجوز وبعمه . أقرب أفندى لى
ناظر المحطة ، ودا عشان أوعله لازم أركب الحمار تانى وسط العفوة
٣ كيلو . بقيت أنخرج من المكتب البيت ومن البيت للمكتب . كنت ح أبجن
أبني معلور ولا لا ، إذا كنت اتعلمت الشرب ؟ كل ما اتزل البنتر
أجيب إزازة أو إزازتين كونيالك . كل مصروف إيلنى رايح على
الخمرة . وأخرتها اتهدلت بقايا القيافة بتاعت زمان طارت ، وبقيت
أسيب دقنى بالجمع ، واتعودت أروح بالحلالية والحاكته للمكتب .
ما ألبس البنطلون والياقة إلا لما يجي مفتش . ليه نخوة الدماغ ، واقلع
والبس فى البدلة وانت وسط الناس دول ! !

وابتسم عباس بحسرة وتندم ، ثم صمت . له كل حين وآخر
ضربة خفيفة على ركبتيه . كأنه يروض نفسه العاصية على البوح بما في
صدره :

« كان الكلام ده قبل الوقفة بيومين . وأنا واقف في المكتب جالي
الصراف ووراني قصقوصة قماش صغيرة في ايده زفير ولا بوبلين
حاجة زي دى . وقال لى :

— يا عباس أفندى . حاجة لقطة ، والبياع قومسيونجى صاحبي
تحب أجيب لك كام متر من دا ؟ يعجبك ؟
— حشان إيه ؟

— ليه ؟ مش ح تفصل لك جلالية على العيد ؟

مش فاكر قلت له إيه ، فاكر إني رحت أودة تانية . حاجة
عبراني . أضحك ؟ دى أول مرة أسمع فيها إني أبقى زي ولاد البلد ،
وأفصل بدل البدلة جلاليه . تصور ؟ كل فرحة العيد قال تفصيل جلالية !!
حاجة تضحك ولا تبكى ؟ اللعنة طفرت من عيني مرة واحدة . وهات
باعياط . . عمرها ما حصلت لى . ما كنتش أتصور أن كلمة سخيفة زي
دى ، تخلينى أعيط زي العيال العياط دا كله .

٣

كم تحسر عباس في هذا الوقت على أن اللحظة الذي رماه في كوم النحل
لم يجزه بإساءته عملاً مسلياً يعينه على تحمل الوحدة التي تكاد تقصف
عمره ، وتطير برج عقله . كان يحسد ناظر المحطة وعامل « البلوك » ،

بل ونخفي « المزلقان » ، لأن لهم في القطارات وحركة المسافرين ونطلع الوجوه ، ما ينقلهم من وهدة الضجر والسأم . أما هو فعمله إلى رتيب ، في غرفة ضيقة لا مفر له منها . في أول الأمر كان له في الخطابات جدة تأخذ عليه جزءا من تفكيره . وربما تفكه بما على الظروف من أغلاط الإملاء ومبتكرات الفلاحين . (من مصر المحروسة لكوم النحل قبل) ، (إلى كوم النحل المحطة ومنها إلى كوم النحل البلد) كلها . (خير وسلام) ، و « بلوح » بأرقامها ، ومن « يد ليد » إلخ إلخ . ولكن بعد قليل حرمه التكرار حتى هذه المتعة الضئيلة . وأصبح يحفظ عن ظهر قلب أسماء من ترد لهم بجوابات وجهة ورودها . بل أصبح يستل على صاحب الخطاب ، لامن قراءة عنوانه ، بل من شكل الظرف أو خطه أو لزامته ، وكره عباس أيامه ، وبدأ له عمله في صورة سلسلة من الخطابات موكلة به ، كالصبية حول معتوه تشاغله ، لا يصفع الواحد منها بختمه ، حتى يجيء له من جديد ، هو هو بذاته لا يتغير ، يخنقه في كيس أصفر ، ويقذف بجثته في القطار ، فيجده - بعد أيام - على المنضدة يصبح عليه .

وهبطت على عباس رحمة من الكونياك فعتت له ذهنه ، وأرخت أعصابه ، وعلمته كيف ينسى عمله وأطواره نسياناً يكاد يكون تاماً . يؤدي وظيفته كالمنوم المسوق ، وزاد إهماله ، وعلا التراب كل المتاع .

على أنه وإن تخلص من ملل العمل لم يستطع أن يهرب من وحدة

المعيشة . هي التي وسوست له من جديد . وأعادته له التفاته إلى
وظيفته ، ولكنه هذه المرة التفات خطر . فقد بدأ يأخذ الخطاب بيده -
كأنه يزنه - وبطيل إليه النظر . ثم يضحك . ما هذا العالم المتشابك ؟
حتى إلى أصغر القرى تصل هذه السلوك من الورق ، تربط الناس
بعضهم ببعض مالا يربطه الحديد . ليس يفهم ما بين الناس من تماسك
إلا من يدخل مكاتب البريد . هذه الجماهير التي ترى حرة في الشوارع .
في أثرها رسائل تلاحقها وتأخذ بتلابيبها ، تصدمها وربما عرقلتها وكفأتها
أو غيرت مجرى حياتها إلى مالا تظنه ولا يخطر لها على بال . قد تكون
استجداء أو تهديداً ، شكوى أو تحكما ، بعضها قسوة وبعضها استرحام
قد تكون محبة أو عداوة . مكتوبة بالعطر أو بالدم . قد تكون كلها أرقاما
تمثل خراب بيوت ، وقد تظفر وحدها دون غيرها بدليل على خيانة
زوجة طاهرة ، أو اعتراف بجريمة . وقد تكون بعد ذلك تافهة ،
غثة ، تمثل ما في الحياة من رغاء كهدير الإبل ، ولكنها - رغم ذلك -
لها قيمتها لأنها مغلقة ، مجهولة ، مطوية ، فلا يختلف جواب عن جواب
كلاهما سر محجب لو لان الصمغ لا نكشف عن أمر عجيب .
وحتى لو لم يظفر المقتحم بشيء فإنه سيقع على أمثلة من طبائع الناس
وأهوائهم : سيشجيه أن يرى كيف يضع الله في كل قلب ما يشغله ؟
لا يتشابه قلب وقلب : كلها مسارة روحها مصونة ، لا يفسدها الجهر ،
فالطبيعة فيها على حالها : لا مواربة ولا خداع . وربما لا تحوى الحياة
متعة تقارب لده تتبع رسائل عقل حساس - أنا كان عصره أو طبقتة .

وأنحلت يد عباس تأكله. ورغم اجتهداه لم يستطع أن يفهم البلد وعقليته. وشهوات أهله ومناحي أفكارهم. فهل يكون عمله هو المنحة التي وهبها له الحظ ليوقفه من كرم النحل على أدق دنائنها؟ وأنخرا - لسوء حظه - طراً عليه وهم هو وحده الذي رجح الحجة المريضة. وقذف به إلى الجريمة. هذا البلد الكريه سلبه شبابه، يكاد يكون مقبرته. وهؤلاء الناس المثنون، المصفرو الوجوه، المرضى العيون، يضمرون له - لأنه غريب - ازوراراً وانقباضاً، كلهم يضحكون في وجهه [يخبث وتباله]، وهو يفضلهم بتربيته وعقليته. ففي العمل الذي سيقدم عليه خير انتقام منهم. سيطويهم جميعاً عليه، وتضمهم قبضة يده، وسيقف أمامهم صامتاً ولكنه يهزأ منهم في قرارة نفسه. وسيكون هو الفائز لا محالة. سيحتاط للأمر، ويربط لسانه، ويكتم السر فلا يدرى به أحد. فليس من خطر. وكان مقدراً عليه في يوم، بعد انتهاء عمله، أن يختار جواباً غير عبوك الظرف، ويفتحه على مهل...

... إيدى كانت بترتعش. خائف وبرضه مقاوح. لكن رغم دا ما شبعش من جواب واحد. بعد ما قفلته فتحت جواب تاني. جوابات فلاحين حسابات وسلام وسؤال عن الأقارب. ومع ذلك كنت مبسوط. حاجة انزاحت من على قلبي. لغاية دلوقتي مانيش عارف ازاي قدرت أعمل كده... مش دي طبيعتي. لكن حاجة وزتني... والشيطان لعب بعقلي،

اعتراف ساذج لمس قلب حسنى فابتسم . . . وقلبه حزين .
ليس عباس أول شاب يعرفه يأتي من القاهرة ليرتكب أول جرمه في
الصعيد . كثيرون غيره جاءوا أصحاب النفوس ، على وجوههم جمال
الرضا والاتزان ، في حركاتهم وملايسم تأتق ، فأصبحوا بعد زمن
غلاظ الوجوه ، سمان البطون ، ثقلة حركاتهم ، نظرتهم حيوانية ،
وكلامهم بداءة متكررة ، وفكاهتهم منحطة . أفكارهم مخيفة محصورة ،
ضيقة . حين يعودون لمدينتهم ينكرهم أصدقائهم ، وتختلف أذواقهم
حتى كأنهم شعبان مختلفان .

الصعيد هو المستول عن تفهم . . . فهم طيبو القلوب ، ولكنهم
من ضيق التربية بحيث لا يستطيعون السمو عن المحيط المنافر لهم ، أو
إنخضاع ظروفه لمنفعتهم ، واستخلاص ما فيه من خير ، والإعراض
عن شره . فهم لا ينتقمون من جو الصعيد المقبض ووحده القاتلة إلا
في أنفسهم . يسهلون لها المترلق ، ويتردون في عناد وتكبر إلى الهاوية .
بدأ أحدهم بكأس مع أصدقائه ، وينتهي بسكير مدمن . الخمر أهم
خزين بيته . . . ويلعب آخر للتسلل ، فيصبح مقامرأ يسهر للصبح ،
ويوقف حياته على تشم أخبار « البرتينات » . ثم من وراء ذلك من
ينساق إلى اختلاس هين ، أو سرقة تعد بالقروش . منهم من ينجو ومنهم
من ينتهى إلى السجن . . .

ليست سقطة عباس إلا مثلاً آخر على ضحايا الصعيد . لا يفرد
وحده بهذا الجرم . فكم في الأرياف من مكاتب يريد يفتح

موظفوها الجوابات ، لا يكتشف منهم إلا اللصوص الذين يتصيدون أوراق البنكنوت ، وتبقى جرائم الباقي مستورة ؟ بعضها تجسس على عدو معروف . وبعضها نتيجة عقلية موظف يعيش في وهم دائم من الدسائس والوشايات والاثهامات ، فيحتاط لنفسه ويقرأ خطابات من يتوقع منهم الشر . . .

هذه الأصناف كلها يحتقرها حسنى وينفيها عن دائرة الإنسانية التي تتعلق بها . . . فهل عباس من هؤلاء ؟ جريمته واحدة . وقد يقول متشكك إنها أثر مما في طبقات نفسه من قبح مكتوم ، ولكن حسنى يتق بالهام ووجدان في طهارة صديقه . إن جريمته ليست إلا اختاما فجيعا لاصطدام عباس ، ربيب قهاوى القاهرة وشوارعها ، بالصعيد وطنيه وفلاحيه . طبيعته قبل أن تفسد تكسرت ، فهو أحسن حظاً من بقية الضحايا الذين يموتون على مهل حفاً .

٤

« كنت في الأول أفتح الجواب إلى يحيى تحت ايدى بالصدفة ، كله عندي زى بعضه ، تسليه والسلام ، لقيتها كلها سخيفة ، بقيت بعد كده أنتى بجوابات ناس أعرفهم . من دول مرة حجوزة تيجى كل يوم الصبح تسأل بنفسها على جواباتها . . . »

« كل الناس يواجهون الشباك ، أما هى فجاءت ووقفت بجانب ، منكشدة ، الحياء يقطر منها . سألتها عن حاجتها فلم تغير موقفها

وكلمته . صوت مدلل ناعم ، ولهجة خليعة بلا سبب ، كأنها تعرفه
بل كأن بينهما علاقة ، وليست هذه أول مرة يراها فيها . . .
ما ليش جوابات النهارده ؟ مالك مصهن على .. ياخوى ..
دا الغشم ما كنش كده .

أم أحمد تتعصب بمندبل « بقوة مغلغل » وتغطي وجهها بطرف
طرحتها قلما تزيج ، حتى يظل لها بفضل رقة صوتها جمال الظن والحدس
على أنها إذا تكلمت تضعف من جديد أمام اعتقادها في نفسها وفي
حرما الذي لا يزول ، فهي تزيج لمحدثها طرف طرحتها لحظة واحدة .
ثم تعود لصوابها وتغطي وجهها ثانية في حركة سريعة ، كلها جبن
وتردد ، يتمثل فيها نزاع حاد لا ينتهي بين قوى متكافئة : غرورها
وحصافتها .

ناولها خطابها ، فمدت له يداً ، من حافة أظافرها إلى الرسغ
فروع من الوشم مغمضة ناشفة ، لم تفلح الحناء في تغطية زرقها .
- « من إيد ما أعدمهاش أبدا . . . يمتعك بشبابك ، تنهى . »
أخذت تبيته كل صباح فلا يخيب أملها ، جوابها مثلها في المواظبة .
لم يتأخر في يوم . . . الظرف الواحد ، ونحتم البريد لا يتغير (مصر)
والخط على الظرف مهذب ، والكلام مختصر ، يكاد يفرد عن بقية
الخطابات بهذه الميزة .

« كل ده خلاني أهتم بالولية دى . . . خايته ح تكون إيه ؟
الجوابات دى من قريب لها ؟ مش معقول . . . لما بحت البوسطة

وشفت جوابها ، حاجة خلتنى مش قادر أسيه من إيدى .. بصنعة
لطافة بشويش على السبرتوشوية شوية لما فتحتة .. فكرك لقيت إيه ؟
جواب حب من الدرجة الأولى . . فيه بوس وأحضان وشكوى
وكلام فارغ زى ده . . ضحكت لما انفلقت . أول الجواب
(حبيبتي ونور عيني) . . مش مصيبة ان الولية دى تبقى لسه لدوقتي
نور عين ؟ لكن بقيت مش مصلق ، مش داخله راسي . لازم
المسألة فيها سر تاني . إزاي أوصل له ؟ سهل خالص . بصيت للإمضاء
لقيتها تحليل . . جة في بالي طوالى ظرف دائما ألاقه في الصادر
العنوان إالى عليه :

« حضرة المحترم الفاضل تحليل إبراهيم أفندي

يحفظ بشباك بوسته الفجالة مصر »

لازم هوا . . ح يكون في مصر كام تحليل لهم بجوابات
من كرم النحل ما فيش غيره في الغالب . . تاني يوم قششت الصادر
ع الجواب إالى في بالي لقيته . . الظرف مكتوب بالكويا . خط منتظم
لكن حروفه واطية . حاجة نسواني كده . . زى ما عملت في الأول
عملت في الثاني . فتحتة . لقيت رد جواب أم أحمد كده حب هو
واخر لكن الإمضاء لا أم أحمد ولا أم دياولو . . كلمة واحدة
معقولة : جميلة عرفت إني أنا مش وحدي في البلد . . أم أحمد
عامله بوسطجي معاي . تاني يوم لما جت لي ضحكت عليها وقلت لها :
— لك جواب مسوكر . . من فضلك أكتبي اسمك هنا .

— يا بنى ما تضحكش على . . . دانت غالى عندى قوى وحياة
شرفك نختمى نسيته فى البيت .
فتأكدت . . . ولما قلت لها دى كانت غلطة منى ابنتى قوى
افتكرت إنى هزرت وياها مخصوص .
تتبع مراسلات جميلة وتحليل . . . هى اللى تستنى الجوابات
الثانية . مابقتش أفتح منها ولا جواب .

•

فى مبدأ الأمر بدأ يشك أنها جوابات حب عادية كثيرة الوقوع
بين فنى بختنى وراء شباك البريد وفتاة وراء عجز ، وأن عباراتها
متكررة وفى أغلب الأحيان متشابهة . ولو كان شعور عباس مقصوراً
على ما تراه عيناه ، لأمله ما بها من خلط بين الحُب وأحاديث أخرى سخيطة .
فليس شىء أقرب لأصحاب الطبيعة النارية من المثل ، لديهم كل ثورة
متعالية قصيرة العمر ، يعقبها هدوء كأنه الموت . ولكنه فوق ذلك —
ذو قلب حساس . اهتز كالعصا اللى تكتشف المناجم الخبأة . فوق
كنوزها المدفونة بين السطور ، شىء نخبى فى هذه الخطابات تعلق
بقلبه ، فأصبح لا يستطيع الخلاص منها .

بعد مدة بدأ بينه وبين الفنى نفور . . . فهو يكتب بالحبر ،
خطه جميل ، ولكن أثر التصنع والجهود فيه ظاهر . شعر عباس أنه
أمام شخص (يحسن خطه) أكثر مما يعبر عن شىء . يبدأ كل مرة

من طرف الورقة المثني ، ومضع التاريخ دائماً في أول الصفحة من اليمين ، ودائماً بالخط النسخ يحيط إمضاءه بخط يخرج من حرف اللام ويرسم فوقه دائرة صغيرة تبدأ منها دائرة أخرى كبيرة تشمل الكلمة كلها . في كل جواب منه فراغ أبيض قصرت عنه أفكاره أكثر أحاديثه عن حركات مادية . من أوائل الخطابات التي فتحها عباس ، خطاب يحكى لها فسحة في القناطر الخيرية مع بعض أصحابه بدأه باللغة العامية ، فلما جاء للحدائق وصفها لها بلغة فصحي فيها كثير من السجع . كل هذه المظاهر جعلت عباس يعتقد أن تحليل شخصية ضحضاحة قوامها الغرور . . وظن في مبدأ الأمر أنه لا بد أن يكون تلميذا .

ضاعت قيمة جوابات تحليل في نظره ، ولم يبق له إلا جوابات جميلة . لم يكن تقديره لها من أثر المقارنة بين الاثنين . فأصحاب الطبيعة الصافية ولو أنها مشتعلة كعباس ، لديهم استعداد موهوب يفتح أعينهم للإحساس الصادق . . وكانت كل مظاهر جواباتها تدل على أن حب جميلة مخلص غير كاذب ، يشغل حياتها ويأخذ قلبها كل تمكيرها . . وقد ساعدتها الظروف على أن تكون كتابتها أرقى . فليس في القرى الفتاة حياة مادية تستطيع أن تتحدث عنها . هي في أغلب الأمر حبيسة دارها . فاقترنت جميلة على وصف شعورها وأفكارها تقص له - من جديد - ذكريات قديمة بينها . وليس من جواب إلا تضمنه أملا لها في المستقبل أو ثقها بعدالة الله . لم تحاول

مرة أن تكتب باللغة الفصحى ، مع أن الدلائل تدل على أنها تعرفها ..
كتابها تنهى دائماً - وكأنها مرغمة - في آخر الورقة . خطاباتها
كالظروف مكتوبة بقلم كويا . مرة تبدأ من الطرف المثني ، ومرة
من الطرف المفرد . جواباتها على الورق المسطر بالمستطيلات ، وفي
بعض الأحيان تكتب على ورقة كراسة . كثيراً ما تهمل التاريخ
وكثيراً ما يكون في خطها حروف أكثر ظهوراً من غيرها بتبلي
الورق ، دلالة على أنها تسهر في بعض الأحيان وتضع القلم في فمها
تبدأ الجواب بحروف مقاربة ، وتنتهى به وقد اتسعت . لاحظ عباس
أن هذه الظاهرة تتكرر في الخطاب الواحد ، فاستنج أنها تكتب
الجواب في بعض الأحيان على جلسات متعددة ، ومع ذلك لا
يستطيع من يقرأه أن يلحظ أى انقطاع في روحه . الكلمة التي قامت
عنها ، هي في ذهنها عندما تعود .

٦

لم يكن عباس جاسوساً دنيئاً يسند كل لداته من اطلاعه - مجرد
اطلاعه - على أسرار يظنها صاحبها في مأمن ، سواء أكانت أسراراً
ذات خطر أم نافهة . بعض النسوة يقفن بالساعات وراء الستائر
يراقبن جيرانهن يؤدين خدمة المنزل . فهو أوكأن كليلك لارتد شعوره .
ساعة فتح الجواب وانحصر في نفسه لايهمه - بل وربما لا يفهم -
مايقع عليه بصره . يغمره نجاحه في معرفته للسر بالغبطة المريضة ،
على وجهه ضحكة صفراء لكراء ، خبيثة ، ممروزة ، هي أكثر
ما تكون نهل الشيطان الذي يتلبسه .

أما هو فبعيد عن هذا . قلما يفكر ساعثاً في نفسه ، إذ يشعر أنه انتصر . ليس على وجهه أثر للغبطة ، بل بالعكس ، شيء في هذه الخطابات يهصر قلبه ويميت شفتيه . أهو من لدمه على جرمه ؟ أم لأنه استغاق لأول مرة في حياته على ضجة الدنيا ، يخفق طيها نغمات قد تكون خافتة ، ولكنها أصيلة ! هل كان يظن أن أسطح القش وجدران الطين في كوم النحل تحق قلباً متوقداً ، يتفطر كل يوم على الورق ، ولا يهدأ أو يلدو ؟ كيف احتملت جميلة حتى ضمنت أم أحمد في صفها ؟ وسط أي الصعاب تم جوابها ؟ يعتقد عباس أنها تكتب بالكوييا ، لأن القلم أسهل في الإخفاء من الريشة والنواة .

ما كان يظنه لهواً وتسلية انقلب إلى شغل شاغل ورباط وثيق . أصبحت هذه الخطابات جزءاً من حياة عباس ، لا يستطيع أن يستغنى عنها . هو من قبل يجيء أم أحمد يفتش عن جوابها ، ولا يرسل البريد إلا بعد أن يتأكد أن ليس به جوابات من جميلة . فإذا ظفر به وضعه في جيبه وتملكته حمى العاشق ، لا يظيق مرور الساعات التي تفصله عن اللقاء .

فعباس يختار لقراءة هذه الجوابات ساعة متأخرة من الليل ، وربما بين كأسين . يجلس بجوار النافذة ، سنده ذراعه على مائدته ذات الأرجل الثلاث ، وجهه في نعمة ضوء المصباح ، ولكن في تقاطيعه الساهمة حزن بعيد عن الانقباض مستريح غير قلق . خلفه كائن قريب منه ، إن أراد أن يراه ، فما عليه إلا أن يدير للنافذة وجهه فيقابله .

ليل في ظلمة العمى ، تلفع به الكون مرعماً ، هبط على الفضاء حملاً
ثقيلاً ، أحاط بالأرض كالقيد ، غطى الحقول كالكفن ، ولف
القرى كالضباب . وانحدر - ولاحد لا تساعه - إلى الشقوق فاحتواها .
ثم تلفت يبحث عن مداخل النفوس التي يعلم أنها تستقبله وتشر به
فاحتلها بتمطى فيها . هو الآن في كل زورة لكوم النحل ينسل كاللص
إلى قلب عباس ، على غفلة منه ، كصندوق الراديو لا يعلم السر الذي
يحتويه . . إلا إذا ضغطت يده على مفتاحه .

لا ينتهي عباس من قراءته حتى يغشاه الوجوم . في قلبه وسواس
غني يشعر أنه صادق لا يخطئ . يهمس له أنه يطل على الفصول الممهدة
لأساءه ، ويكاد يحس بيد خفية تجذبه شيئاً فشيئاً من غيباً المتفرج
المجهول ، إلى حلقة النزاع التي تضم رأسين لا يشعران بالسيف
المعلق فوقهما . . حتى يصبح الخطر واحداً للجميع .

في الحياة مصائد تعلق بها قدم الإنسان من حيث لا يحتسب ،
فلا يستطيع الخلاص منها وإن أجهد نفسه . فهل كان يخطر على بال
عباس عندما فتح أول جواب أن قلبر هذه المراسلات سيقاطع قدره
ويختلط الاثنان جميعاً ؟ أن تكون في أول الأمر لعبته ، ثم في النهاية
مصرعه ؟ لم تصبح مراسلات بين اثنين . . بل بين ثلاثة ولعل أكثرهم
تأثراً بها من لم يخط فيها حرفاً .

« تقلت في الشرب شوية . وفي الوقت ده بقيت أنام الليل وأنا
نحايك ، وجاءت لي أحلام مزعجة . وفمت مرة وأنا مفزوع أصرخ .

ما فيش حد في البيت غيرى . آخر ما غلبت اترجيت غفر الدر لك أنه
 يبقى دائما موالينى . فات على كده حصة ثلاثة أشهر وأنا ما يفوتنيش
 جواب واحد . كنت الأول أنحن حاجات كتيرة ، لكن بعدين فهمت
 من الجوابات تاريخ البلت دى من أوله لآخره . لكن من هى ؟
 ما عرفتهاش أبداً ولا شفتهاش . كنت خايف لو لحت لأم أحمد تكون
 مرة بنت حنت ، تفقسنى وتودينى فى داهية مرة ملعب مش مساهل .
 اتشمنت من هنا وهنا عرفت أنها تدخل كل بيوت البلد تقريباً . ازاي
 أعرف ؟ مش ممكن . بقيت أبص للبنات الى ماشين . كلهم الطرحة
 على وشهم ، منقوفين فى ملايات سودا ، مصبوغة منيلة تخرنخش زى
 الورق . يمشو لازقين فى الحيطه زى اللى راح يدخلوا فيها . ما تلمحش
 وش واحدة منهم . بين فيهم تكون جميلة . حاجه تيجن . كل
 واحد أشوفها أحسن أن قلبى يتفرض ، مش يمكن تكون هى ؟
 كل الى عرفته كان على أم أحمد . كل ما استفهم الا فى ناس
 كثير يعرفوها ويحكولوا عنها . ولما فهمت السبب فى إن جوابات تحليل
 تيجى عليها ، عرفت المسألة من أولها لآخرها .

الفصل الثالث . جميلة وبنت ناس

١

كوم النحل من أعمال مركز . . . باسيوط . ليس فيها أحد يستطيع أن يجيب : هل النحل هو الذي خلق البلدة ؟ أم هي التي خلقت لنفسها هذه التسمية ؟ كل ما يظفر به الباحث سطر ونصف في خطط على مبارك : « مشهورة بجودة عسلها . بينها وبين مركز . . . خمسة عشر كيلو متراً » . لم يقرظها باسم أسرة واحدة مشهورة ، ولكن الظواهر تدل على أنها بلدة قديمة . قد يرجع سبب إهمالها إلى أن آثارها لم تكتشف بعد . فهي لم تتأثر بالطوفان العربي ، وتكاد تنفرد عن بقية بلاد المركز بأن اسمها ليس مسبقاً « بينى » ، أو ينم عن اسم قبيلة . هي واقعة على البحر الطوالى . بعدها عن الجبل نفور ظاهر عن حياة البلد . وارتفاعها عن وسط الخوض ترفع عن الزراعة .

والأغلب أنها ظلت طول عمرها في تجارات تعيش زمناً ثم تنحصر . فلما وقعت على النحل — ولا يعلم متى — لم تسقط إن تتخلص من قبضته . وشملها هذا الحيوان الخفى العجيب ضمن مملكته ، فأدخلها نخليته لالغطيا بقيته المرمية ، بل بشهرته واسمه .

وبال بعد ذلك نحت مصر ، وذوت صناعاتها ، وجاء يوم تفرق النحل فيه من خلاياه إلى الثقوب وفجوات الشجر ، ثم بلعه الكون وغاب . لم يبق من هذا التاريخ سوى الاسم ، وبعض نخلات من الطين على أسطح قليلة . يرزق منها ومعاشها متوقف عليها ، بيوت قبطية تربي النحل وراثة لا اختياراً عن تلقين لآعن سعى . تجارتهم محاطة بسرهم ككهنة دين هدمت محاريبه في نظر بقية السكان الذين غمرتهم الزراعة في ذلها واستعبادها . فليست تملك كرم النحل — على اتساعها وكثرة سكانها — سوى الأقل من عشر زمامها ، والباقي وقف لسلالة من الشركس لها قصر شرب في البندر .

من تجار النحل في البلدة المعلم سلامة . رجل يقول عنه المسامون إنه « عضمة زرقه » ، ومع ذلك لا يشعرون إذا جالسوه بأي كره له . لا لأنه يحكم مهنته بعيد عن المساق ومشاجراتها والخلود وخصوماتها ، والمواثي تنزل في البرسيم ، والماء يمر بالقوة ، بل لأنه رغم ما يقال عن شيبته الزرقاء (أيضاً !) لا يكاد يفترق في مظهره ، في أخلاقه وعاداته ، عن بقية المسلمين . اللبس واحد ، والعمامة فوق رأسه عليها المقدار ذاته من التراب . تتحجب امرأته في الطريق كأهل البلد .

هو أرثوذكسى ، يزهر بزيارات القسيس له ، ويأخذ أسرته كلها للكنيسة ، فيجلس هو تحت ، وتجلس امرأته وبنته الصغيرة جميلة فى الشرفة محجة بالشيش. ويبدأ الجميع فى ترتيل صلاة ، بعضهم يقرأها من الكتاب ، وبعضهم لا يحفظ النعمة فهو متردد ، ولكنه يسير بسهولة بعد ذلك عندما ينتظم الجميع ويحملونه معهم ، يقودهم المعلم سلامة ، يحفظ كل الصلوات نغماً وكلاماً ، عن ظهر قلب . صوته أجش غليظ ، يقال عنه إنه كان فى شبابه أحلى أصوات المصلين ، ثم أتلغه الكبر والدخان . وينسى المعلم سلامة نفسه ، ويحنى رأسه على صدره . ثم ينتبه بين حين وآخر لصوت رفيع ، كله تضرع وخشوع ، هو صوت جميلة ، ترث أباهما فى ذوقه الموسيقى ، لا يشعر به أحد ، ولكن أذن الأب تصطاده من وسط التيار .

وفى يوم هبط البلد مبشر بروتستانى من أسيوط . وقف فى الشارع بعظ ، ثم اتصل بالأقلية القليلة التى على مذهبه ، وتوصل منها إلى الاختلاط ببقية الأقباط . فى يده أمانة يلوح بها ويغرى : « فى أسيوط مدرسة للعيال وللبنات مجانية ، قرابة وكتابة ، وشغل الإبرة والمطبخ . إنجليزى من الأصل ، المسر كارتر الأمريكانى والمدام أليس . مين يقبل ؟ مين عاوز ؟ فيها قسم داخلى ... »

الحب الأبوى وحده هو الذى زحزح المعلم سلامة عن تعصبه ، وأسلم جميلة ، ولم تبلغ العاشرة ، وقلبه يفيض بالأمل أنها فى يوم ما تكون معلمة فى المدرسة التى تدخلها الآن تلميذة .

خرجت جميلة من سجن كوم النحل إلى بحبوحة المدرسة . بعيدة
عن أهلها ، وسط زميلات شياطين ، لاتعطين المعلمة ظهرها حتى
يعلو ضجيجهن كلغو الحمام ، حشوه ضحكات وأصوات غضب كله
دلال . يداعيها ويلاعبها . يقتلن الوقت في الفسح ، ويتبادلن نخسة
روايات كل سحرها من وهم قارئها .

في نهاية كل سنة تعود جميلة لتشيع من « برام الرز بالحمام » ،
« وتشرق - يا حبة عيني ! » وهي محرومة في أسبوط .

ويوم يمر ويوم يأتي ، والفتاة النحلية القصيرة ، يتجشئ سر
الحياة في جسمها ، فينبث ثدياها ، وتعرف الحجل ، وغض العين ،
وصعوبة النوم . . .

وأنتم جميلة السنة النهائية ، ودعى المعلم سلامة لحفلة توزيع
الشهادات ، فجاء في أحسن ثيابه . كيف يستطيع بعد هذه الفرحة أن
يرفض طلبها البسيط ؟ يصحبها إلى « النخيلة » ، لأنها مشتاقة (قوى
قوى) لحالتها . أسبوع واحد تمضيته هناك ثم تعود لكوم النحل .
... « لكن مش ح سيبلك تغيبى هناك . أمك عاوزاك بالحيل .. »

٢

وأدخلها إلى « النخيلة » . لا يعرف أن سبب سفرها ليس شوقها
لحالتها ، بل تنفيذا لاتفاق سابق بينها وبين إحدى التلميذات من هذه
البلدة . وعد له حرمة لأنه موثق بيمين . فبين جميلة ومريم « أنحنى

وحبيبتى طول العمر » ، عهد كله إيمان وغيره وعتاب . عشق حاد
لا تعرفه سوى مدارس البنات .

عن طريق مريم تعرفت جميلة فى النخيلة بأخيها خليل . بين
الأقباط — داخل المنازل — قدر بسيط من السفور والاختلاط ،
هو أكثر الأمر محصور بين الأقرباء .

قد تتمتع القبطية فى الصعيد بالسفور . ، ولكن عدد من يعرفها
فى النهاية قلما يزيد عن الذين يرونها لأول مرة . ولولا تردد مريم
على المنزل واكتسابها لقلب الحالة ، لما تمكنت جميلة أن ترى خليل
أو تجتمع به — فيما بعد — فى خلوة بإحدى الغرف على غفلة من
خالتيها .

هو أول شاب تراه جميلة عن قرب ، ولما يمحض على اشتعال
جلدة شبابها وقت طويل . وزاده قيمة فى نظرها أنه أخو مريم
« أختى وحبيبتى طول العمر » . خدع نفسها إكبارها للصدايقة ،
فانسقت دون أن تشعر إلى الإعجاب بالأخ . ولكن هذه كلها
ظروف خارجية ما كانت تستطيع أن تتسلط وحدها على قلب جميلة
لولا أن ساعدها شارب صغير — صغير جداً — شعر خفيف ، يزين
شفته . فى حديثه ثقة لا ينساها من يسمعها . خدعه لم يعرف الموسيقى
إلا من وقت قريب . يحمر ويصفّر إذا تلاقى نظراهما .

كان الحديث بينهما فى أول الأمر صعباً ، غير أنه سهل بعد ذلك
لما قص عليها أنه درس مثلها . (فهو بروستانتى) فى مدارس

الأمريكان ، وأن فرحه بإتمام دروسه لا يقل عن فرحها ، فهو موهود
بوظيفة مدرس في إحدى مدارس الأقباط بالإسكندرية ، وسيسافر
إليها عن قريب . وأراها قلم الأبنوس الذي فاز به لحصوله على أعلى
درجة في اللغة الانجليزية . هل تتكلمها مثله ؟ وأسرع يقترح عليها ،
كمادة التلاميذ ، أن يتكلما بها ، وهكذا . وتنقل الحديث بينهما
فإذا بعقلية الفتى في مستوى عقلية الفتاة . أغلب ذكرياتهما عن المدرسة
فكاهتهما مستمدة من التلاميذ والمدرسين ومختلف شلوذهم . وأزال
هذا التشابه ما بينها من كلفة . وشعر خليل ، بعد هذه الجلسة ، بحيل
معظمه صبياني نحو جميلة ، وزاد تردده على المنزل متعمداً الانفراد
بها . أمسك يدها . ثم لمس ثديها ، وقبلها . ونسيا نفسيهما في إحدى
هذه الفورات واجتبي منها الشباب جزيته .

لما انتهت السكر ، لم يستفيقا على منظر مقبض أو قلب ملتانع .
بعد أيام قليلة استدعى لوظيفته بالإسكندرية . وأخبرتها مريم أن
أمنية أمها أن تزوجه في أقرب الفرص . ووعدها خليل أن يعود
بعد شهر واحد لكوم النحل ويخطبها من أبيها . ستبيع أمه عشرة
قراريط تملكها ، ولا يظن أن أباهما يعارض أو يرفض . وكادت
جميلة تقبض على سعادتها .

ظهر أول خلاف بين طبيعتهما عند اقتراب السفر . كانت
تعتقد أن زحمة ترتيب « الشنطة » وتوديع الأقرباء لا يجوز لها أن
تغطي على اهتمام الحبيب بحبيبته . في حين أنه شملها ضمن هذه المشاغل
لا يدرك إحساسه أن اعتلأوا به بإحداها يتنقصه في نظرها ولا يبرئه .

على أنه استطاع أن يختل بها ، وكرر لها ، وكان صادقاً ،
كل يمين . وجسم لها المستقبل مرة أخرى في صورة سعيدة محققة .
مسألة وقت لا غير . ثم هفا به لسوء حظه طبعه الصبياني ، وطلبها من
جديده وكانت جميلة واثقة من وعوده ، وربما لم تكن أقل منه ميلا
لطلبه ولكنها أثناء نشوتها ، أشرق عليها إدراك أشبه بالإلهام ، أحست
معه بفراغ بارد يدب في قلبها فيطفي من هيجانه وثاره . في الحاح خليل
عليها لتجيبه إلى طلبه وهو على أهبة السفر — دليل مؤكد على
خفته وقصور نظرة عند موطن قلميه . يهس لها وسواسها : لم
العجلة مادام سيعود ؟ أهو صرح عال على رمل ؟ هزة واحدة هلمت
حولها حطاماً . ودهش الفتى المتعب عندما رآها تثبت برقبته .
تحوطها بلراعها ، وتستند رأسها على كتفه ثم تحضنه . تحضنه إلى
صدرها وتهللى كالحمومة :

— خليل ! خليل ! خليل !

لم يتعب خليل في تهديتها . فهي التي استفاقت إلى عبث ما بدا لها
من جديد أنه وهم متسرع . وعاد إليها ، بعد جهد ، اطمئنانها على
مستقبلها ووثوقها بخليل .

وبدأ يتكلمان عن فترة الغياب ، واتفقا على أن يتكاتبا . فأخرج
خليل من جيبه ورقة وقلماً وكتب لها عنوانه بالاسكندرية ،
فهو سيتزل ضيفاً على أحد أقربائه ، أخذتها جميلة وقرأتها . ثم
التفت إليه تبسم ، وكأنها تعاتبه . مزقت الورقة أمامه :

يستحيل أنساه .. ما تخافش .

ولكن كيف يرد عليها ! أنها ستغادر النخيلة عن قريب .
وفي كوم النحل لا تستطيع أن تستلم خطابات باسمها بدون
علم أبيها . إذن فلتكتب له ، فهذا لا يصعب عليها ، وليصبر هو
لا يرد عليها حتى تعود لبلدها ، وتهديه إلى طريقة تمكنه من مراسلتها .

٣

في مساءه الأخير جاءها ليودعها . قلق السفر يملكه ، فهو
عجل مشرق الوجه لا يستقر على فكرة . لم تصلحه الفتاة بوجه عبوس
أو عيون دامعة ، بل وجدت نفسها تشاركه ، صادقة طيبة النفس ،
بهجة . هل يستطيع أن يحدد لها مياعدا لرجوعه لكوم النحل ؟ بعد
أول مرة يقبض فيها مرتبه من عرق جبينه . لن يغيب أكثر من شهر
واحد . هل سمعت عن فلتس معوض ؟ لا ؟ إنه من أقربائه
البعداء ، وسينزل لديه مدة إقامته في كوم النحل

ولما هم ينصرف أمسك خليل بيديها ووضعهما على كتفيه ،
ثم طوق خصرها . عيناها في عينيه ، السعادة التي تغمره صفت
طبيعته من التصنع والالتفات للنفس ، ولذلك نقلت نظراته إلى
قلبها وطوى شعوره شعورها .

«أحلف لك بإيه إلى مش ح أخونك في الاسكندرية . اوع
تفتكرى .

أنا بقيت في إيدك .. اعمل في اللي تعمله .

إننى خايقة ؟

لا بس مش عارفه ح أصبر ازاي .

كل ما تفتكرى في اكتبى لى جواب . بس جوابات طويلة مليانة . عايزك تكتبى لى كل يوم ولو سخته ، وأنا تو ما ح تبعتلى عنوان ح اكتب لك على كل حاجة .

وجلس واجلسها على ركبتيه . قبلها على عنقها وعينها وبين ضغائرهما . ثم توالى قبلاته حارة هوجاء هنا وهناك .. لا يدريان كم من الوقت مر عليها . ولا كيف تنهى هذه القبلات .

حركة رجل وصوت باب ، قطعاً عليها الخلوة . وقام خليل .. آخر ما رآته منه وجهه يديره لها وهو يخرج . وجهه طفل سعيد فرح . بعد يومين كتبت له من النخيلة جوابها الأول .

٤

أقفرت النخيلة فأرسلت لأبيها أن يأتى ويأخذها .. وعادت لكوم النحل معها حقيية بها « برانيطو كتب » : أصجوبتان في منازل العليين والقش ..

وتوالى على جميلة زيارات أقاربها وجيرانها ، لا تجد وقتاً تفكر فيه كيف تدبر طريقة يرسلها بها خليل .. وكتبت له جوابين تخبره بأمرها ، وتطلب إليه أن يصبر قليلا .

وبعد أيام كانت في مجلس كله فتيات من سنها ، ينصتن لفتاة
تفصي لمن يخاف هي على كل حال للذيذة ، بدليل ما في وجوه
المستمعات من تطلع و عيونهن من بريق . دخلتها بعد يومين ، وهي
لا تدري شيئاً من أمر أول ليلة مع زوجها . ماذا سيحل بها ، هي
خائفة مضطربة . توالى عليها ردود كلها عن سماع أو اجتهد .
و كانت حجتهم جميعاً واستنادهن الوحيد (أم أحمد هي التي قالت) .
هو اسم لا تجهله جميلة ، وإن لم تر صاحبه من قبل . لا تعرف عنها
الكثير .. ولكنها لم تقم من المجلس حتى علمت كل أخبارها .

هي امرأة تزوجت أربع مرات . فارقها كل زوج بطلاق
بعد عشرة قصيرة . وتسمى لها بفضل هذه المجموعة أن تشرى بما
جمعت من متأخر المهور فداناً ونصف بجاموسة . هي ما شطة
« بلانة » في الأفراح ، حادية بالغناء عند طلوع الحجاج ، والمقنسين !
— أوردجوعهم . داية إن استغاث بها جار قريب ، تعرف وصحات ،
وتفسر الأحلام وتحسب النجم تفوح منها دائماً رائحة الماورد ، كل
مناسبة اجتماعية تكون فيها أم أحمد بلا دعوة .. إلا في المآتم ، فهي
لا تطيقها . ولعل ذلك لأنها لم تخلف من زواجها المتوالى ، ولم تفجع ،
كعظم المتطوعات باللطم و « الصوات » ، في ولد عزيز ..

إذا قابلت فتاة كلمتها رأساً ، ولو كانت تعرفها لأول مرة ،
عن جسمها وثوبها وشعرها وبهامها . وإن كانت امرأة سألها
عن زوجها وعاداته ونوبات مرضه وهجرانه .. كم في كوم النحل

من رجال يجهلون أن زوجاتهم تلقين عن أم أحمد نصائح أشبه بالدروس . فمعظم النساء يعرفنها ، ولكن القليل منهن من تعلم أن أم أحمد قد تمثل في بعض الأحيان — عندما تكون « رابطة » — مع التلميذة نصائحها ، لتكون دروسها عملية أقرب للفهم ، وأن هذه الدروس هي سبب اطمئنان فتيات كثيرات في لياليهن الأولى مع أزواجهن ، أو ارتفاع قيمة زوجات في نظر رجالهن بعد هبوط وإعراض استطاعت جميلة أن تتصل بأم أحمد . ورغم سمعة هذه المرأة — أو ربما بسببها — شعرت بوثوق شديد بها .

أفضت لها بقصتها ، وإن كتبت عنها زلتها ، وبثتها حيرتها في شأن الجوابات ، فكانت أم أحمد هي التي اقترحت عليها أن يكتب لها تحليل على عنوانها هي .. مستحفظ الرد من « جوه حبابي عيني .. » وتوصله لها .

وعلم تحليل بالعنوان .. واستلمت جميلة جوابه الأول كاللقية .. فقليل من الناس من يستطيع أن يكتب خمسة جوابات قبل أن يصله الرد الأول .

ليس يصعب عليها أن تكتب الجواب بقلم كويا خفية في منزلها . أحيانا تعطى الجواب لأم أحمد ، وهي التي توصله للبريد ، وأحيانا تكلف به أحد صبيان الحارة على ظن أنه من المنزل ويعلم أبيها .. وهذا لأن مكتب البريد في السوق أمامه دكاكين ، وأناس

بجالسون أقوياء العيون ، وهى تخشى أن يعرفها أحد ، فيتصل بعلم أبيها خبر ترددها على المكتب وينفضح سرها .

فى أول الأمر اقتصر حديث خليل على حياته المدرسية وعلاقته بالتلاميذ ، وتعبه من الدروس ، ثم بشرها فى خطاب تال أن ناظر المدرسة مسرور من اجتهاده ومواظبته ، وأنه أوصى بمنحه علاوة وترقيته .. وأنهم لذلك اختاروه لوظيفة شلت بمدارس القاهرة ، وسيسافر إليها عن قريب .. أليس هذا من بركاتها عليه ؟

لم يمض وقت طويل حتى جاءها خطابه من القاهرة . هو فى وظيفته الجديدة منذ يومين . ما أتعب النقل وزحمة السفر ! ولكنه مسرور . وطلب منها أن تراسله منذ اليوم على شباك بريده الفجالة لأنه يستطيع أن يمر هناك كل يوم ويستلم خطاباتهما أولا بأول . وانتظمت المراسلة بينهما .

الفصل الرابع . فرحة ماتمت

١

وفي نخليل بوعدة ، وجاء بعد شهرين لكوم النحل ، ونزل لدى قريبه فلنس معوض . يظلم هذا الشاب من يتهمة بأنه غشاش أو مخادع . كل ما في الأمر أنه قليل التجربة ، يقدم بسذاجة على أدق المواقف ، جاهلا بما في شعائر الحياة من صلاية . فقد جاء لكوم النحل مفلس اليدين ، لأن أمه لم تبع الطين . لا يدري بالضبط إلى أي مدى يكون مسعاه . كل ما أخبر به أمه أنه سيخطب جميلة . يخطبها فقط من أبيها .

وقابل نخليل مع قريبه فلنس المعلم سلامة ، وفاتحه برغبته في الزواج من جميلة . فارقهما الأب وهو فاهم أن المسألة خطيرة فقط ،

لأنه ينتظر أن يكون مع الشاب أمه أو أحد أعمامه . ولكنه عندما أخبر زوجته الخبر ، سهلت عليه أن يتم الزواج كله مرة واحدة . يجوز أن تكون أم العريس مريضة أو عجوزاً لا تتحرك ويثلف أمل البنت . ثم ما داعى الانتظار ؟ وكانت جميلة بعاطفة نصفها محبة ونصفها استبداد فقد ضمت أمها إلى صفها بل كانت تحركها طوع وإرادتها .

في الجلسة الثانية لم يشعر خليل أنه ينساق إلى التكلم في الإكليل وتاريخه . ثم وقفت المفاوضة مرة أخرى عندما فهم المعلم سلامة أن خليل لم يأت بالمهر . مرة أخرى زالت هذه المشكلة في منزله . وقبل بإلحاح زوجته أن يعقد الإكليل ، على ألا تسافر جميلة للقاهرة إلا بعد دفع المهر ، فهو لن يخسر شيئاً الآن . ولن يبدأ في شراء الجهاز — من ملابس وصيغة — إلا عند قبض النقود .

وتحركت المساعي من جديد .. وقابل الجميع القسيس ، فإذا هو ماء بارد يصب بلا رحمة على نار عجلتهم .. العريس بروتستانتى والعروسة أرثوذكسية .. فلا بد من أن يكتب لمصر ليستأذن هل جاء بشهادة من كنيسة بالنخيلة أنه غير متزوج ؟ إلخ إلخ . شروط شكلية ، ولكنها نستلزم وقتاً . وخليل في إجازة قصيرة قاربت الانتهاء . إذن يعود مرة أخرى . لم يستطع أن يختل بجميلة قبل سفره . لم تأس على ما فاتها ، فأمامها المراسلة بينها ، سيتفاهان بها من جديد ، وستبث الورق كل ما كانت تود أن تقوله .

ولما انتهت هذه الحلقة بسفر خليل ، أحسن المعلم سلامة أنه
يستيقظ من حلم . أين هو وقت أن كان يساق إلى كل هذه
التسهيلات لأجل هذا الفتي الغريب عنه ؟ وحمد الله في سره أن
المسألة لم تم ، يلزمها أولاً تكملة ما في شكلها الخارجى من نقص
يلحظه الناس . على الأقل تأتي أمه ليرى وجهها ، أو يقدم لها خاتماً .
ثم هو يريد أن يسأل بعض معارفه في القاهرة عن حقيقة مرتبه ،
وعن مركزه في المدرسة . ولودرى المعلم سلامة أن في بطن ابنته
جنيناً ينمو يوماً بعد يوم ، كعقرب الساعة لا ترى العين حركته ،
وهو دائب السير لمصير محتوم ، لما حمد الله كما فعل ، ولأكل
لحم قلبه .

٢

ليال لا تنامها من الفرح ، تتلوها ليال من الكرب . كانت
قد أهبت عواطفها بالسياط ، وحلقت كل آمالها على مجىء خليل ،
فخائنها حظها الأغبر . لا تجد أصعب على النفس من الفرصة تملكها اليد ،
ثم تنساب من خلال الأصابع كالماء . لم تكن في إشباع شهوة أو
تحقيق حلم ، بل في انقاذ شرف . ولماذا لا نقول انقاذ روح ؟
فمن يلربها أن حنان هذا الأب قد يتقلب فجأة إلى قسوة لا تلين ؟
أصابعه التى تهوس خلال شعرها قد تتصلب في خيانة مباغته وتطبق
على حلقها . جميلة ! أنت ! التى كنت أعزها ولا أرد لها طلباً ،
تفضحين شيبتي . تضعين ذقنى فى الوحل ، واسمى فى أفواه الناس

يخضعونه على مهل ، كأنه الملك اللذيذ ، على مهل من هنا ومن هنا .
يتبادلونه كأنه الهدايا ، ويشيرونه عندما يملون الحديث .

لمن تشتكى ؟ فتاة لا تعرف من المآزق والمخاطر شيئاً ، ترى
نفسها أمام مشكلة ليست في الحياة مثلها . هي عقدة كلها اصطدام
وتزاع ، وخيوطها من ديانة وتقاليد ووهم ، موشجة بحكم الدم
والجسم . وسر الحياة لا يهمه ماذا يعتقد الناس . لا رحمة فيها .
جبروتها قلما يستطيع أن يثور عليه رجل يعيش في وسط الصعيد
وب عقلية يرثها عن أجيال لا تتسامح ولا تلين .

اصفرت جميلة وتاهت نظرتها ، وتعلمت أن تحتضن الوسادة
بلراعها ، وأن تسرح لا أن تنام . تتقلب على الحنين . هل من
مخرج ؟ ليس إلا أن يأتي خليل من جديد .
وعادت لخطاباتها ، فهي كل ما بقي لها . تنفخ في روح أملها ،
وتستحث خليلاً على المحي .

٣

في هذا الوقت بدأ عباس يفتح الجوابات . لم يفهم في أول الأمر
أن جميلة قد دخلت في دور الأمومة . فهي بعد أن أخبرت خليل
بسرّها في خطاب سابق لم تعد إلى ذكره . تشاؤمها وخجلها يثنيانها .
تحتل عارها فكرة ، ولا تطيقه على الورق مخلوقاً من صنع يديها
مكشوف الوجه ، بشعاً يحملق فيها . واكتفت أنها في كل خطاب
تناديه ، وهو فاهم .

و ظل عباس جاهلا سرها وإن كان في دخيلته إدراك مبهم
بأن هذه الخطابات تحوى شيئا من النقص والتناقض . فكان ما بها من
تشبث بعيد عن الارتقاء ، وعاطفة لا يضعفها التكرار ، ولا يطفئها
صقيع تيار يخلفه الزمن في جريه قد جعل عباس يراها وهو مأخوذ
بها في صورة معوجة ، تزيد من إعجابه ، بقدر ما تمد في ظنونه .
ولكنها — كلوحة السينما — تدلس الفرع بمنظر أبتى ، وترد منطقته
عندما تكشف عن أساسه — أدرك ما كان غائبا عنه عندما وجدها
في خطاب خريب تنفجر بمرارة . مسكينة ! تقول له لماذا لم يأت ؟
هل نسي ما أخبرته به ! أم لم يفهم ؟ لعله في فسحة يضحك ويتسلى
بين أصدقائه يطارحهم النكات . فهل فكر فيها ؟ تجاوزت شهرها
السادس وأصبح منظرها مفضوحاً . منذ أيام وهي تدعى المرض حتى
لا يراها أبوها . جاءها القسيس وبارك وصلى . وجه أمها مسود
كسيف ، لعله هو الذى ينم عليها . لا يزال في الأمر مخرج . لو
جاء ! لو جاء وعقد عليها وأخلها معه . بعيداً بعيداً عن هذا الأب
وهذا المنزل . لتعيش طول عمرها خادمة تمسح حذاءه ، ليضربها
كل يوم ، ليعطها عيشاً حافاً كالكلاب .

ولما قرئت الجواب حسيت لأول مرة إن المسألة مش هزار
ولا لعب عيال . أثارها حاجة خطيرة ومحرنة وأنا مش دارى .
افتكرت جواباتها كلها وفهمت . وقتها بس فهمت . أقول لك
الحق قلبى وجعنى علشان البنت دى . طول الليل وأنا أفكر فيها .

لو كنت في مصر يمكن ما كنتش أترعب علشانها . لكن هنا في
في كوم النحل حاجة غوفاني . حتى الهوا اللي الواحد يتنفسه يكتم
الصدر ويخفق الواحد . ما فيش رحمة ، كل أمل حطيته في الرد
الى ح يحيى . ما ليش صبر أستنى . أنا ياللى مالىش دعوة ولا حاجة
تمسنى ، أmaal هي بتعمل إيه ؟ »

بعد أربعة أيام جاء الرد . لم يستطع عباس أن يصبر حتى يأخذه
معه إلى منزله ويقرأه في خلوة ، بل فتحه في المكتب وبقية الخطابات
أمامه لم يفرزها بعد . وقرأ :

« عزيزتى ونور عيني

علم الله أننى ما تأخرت في الكتابة إليك إلا لأننى كنت مشغولا
ومشغولا جدا ، وأنا يا عزيزتى لم أرد إخبارك من قبل بسوء التفاهم
الذى وقع بينى وبين ناظر المدرسة حتى لا تتكلمى من أجل .
كل الخفاقة على درس خصوصى والسبب في التوقيع شخص كنت
أعده صديقتى كما قال الشاعر :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

وتصورى يا عزيزتى أن الناظر أراد أن يؤذنى ، وسمعت
من الباشفراش أنه شرع في كتابة تقرير ضالى ، حتى أصبحت
أترحم على أيام الإسكندرية ، وحتى بشت من حظى ، وقلت لإراد
الرب . ولكن محبة إلحنا نخلت ناس من حيث لا أعرف يتوسطوا

وأخيراً قررنا إعادتي للإسكندرية وهذا آخر جواب أكتبه لك من مصر ، لأنى مسافر اليوم بقطار المفتخر . فأرجوك يا عزيزتى أن تكتبي لى من الآن فصاعداً على عنوانى القديم هناك . عزيزتى أظن فهمتى الآن لماذا تأخرت فى الرد ، ولماذا يستحيل على السفر إليك . لولا المشاكل التى شرحتها لك ، لكنت كلمتهم فى إجازة قصيرة بحق ونحقيق ولكنى زى ماشفتى ما فىش فى إيلدى حيلة . ولكن لا تخافى المسألة ملحوقه . استفهمت من ناس قالوا لى على أدوية كثيرة ووصفات ، فأخبرينى أبعث لك بدوا ينفعك . وهذا فقط حتى تأتى إجازة الصيف وأحضر لك .

عزيزتى - أخبرك أن أنعى مريم مستحضر طرفى للفسحة بالإسكندرية ، وأمى فاضلة لوحدها رجلها بتوجعها ، ومش عاوزه تسافر .

عزيزتى - عندي كلام كثير مخليه لما أروق فى الإسكندرية أكتبه لك من هناك .
ألف قبلة من المخلص إليك دائماً .

نخيل

« شفتش بواخه أكثر من كده ؟ هو دا جواب يكتبه المغفل دا . زى اللى أنا حاسس بقلب البنت لما تقراه ... سكاكين تقطع فيه !! »

الفصل الخامس سقطرة البوسطجي

حطيت الجواب على جنب فوق الطرابيزة هبال ما انخلص من
من الشغل واقفله على مهلى . قلت فى نفسى أصلاً ما هواش مستعجل
قد كده . ويمكن يبقى ثواب منى لو أنخرته عن البنت المسكينة شوية .
ومسكت فى الشغل زى العادة كل يوم .

ملاً الختامة حبراً جديداً . وأصلح تاريخ الختم المستدير ،
ثم جاء بالخطابات وربها كلها على ظهرها كوماً واحداً ، ثم بدأ
يختتمها فى حركة آلية سريعة متكررة . مرة على الختامة ومرة على
الجواب . خبطة مكتومة ، وراءها رنة خشب . هذا الصوت الذى
يألفه كل من يعيش بمكاتب البريد أو بحربها . هو شهيقها وزفيرها
وهى تلهث فى عجلتها .

لسوء حظ عباس دخل عليه في هذا الوقت شيخ الخفر . هو رسول
العمدة يسأله متى يخرج من البيت . هب فيه عباس وهو يحقق الوجه
هائج . نعم البريد في يده يرتعش . ما هذه « الخوذة » ؟ كل يوم :
البيت ، البيت البيت . يكفيه وجمع دماغ . إنه لا ينادى طرشاً ولا
يتكلم بالسرياني . هو باق لا يتحرك لو عيد ولا لرجاء . إنه ليس
بطفل يزل . وحتى يعتقد العمدة ويربح نفسه ، ها هو هذه المرة
يقسم بالله ثلاثاً أنه لن يخرج من الدار . والله العظيم وبالله الكريم .
نسى أن التحم لا يزال في قبضته . ولم يهتم في حديثه أين تقع
ضربة التحم . وخائفة يده فهوت بالتحم على جواب خليل المفتوح
وقبل أن يعي عباس لنفسه كان قد انطبع تحت إمضاء خليل نعم
(كوم النحل — وارد) في استدارة أم خمسة ، تلمع الحروف والأرقام
حبر زفر ملعون .

وقف أمام خطئه ذاهلاً تركبه الأوهام . لو حاول أن يمسه
لحرق الورق ، وكأنه جاء يكحلها فأعماهها . ولو أقفله وسلمه لأم
أحمد ، فلا بد أن تكتشف جميلة سره وتتصل بخليل فيشتكيه
من يدري ؟ وربما قدم الخطاب دليلاً ضده فيكون جزاؤه الرقت
مؤكداً .

« بقيت بين تارين . إن سلمت الجواب انفضحت . وإن قطعت
ولا حرقة تفضل جميلة تهري وتنتكت مستنية الرد والذنب ذنبي أنا .
لكن قلت في عقل بالي : ياما جوابات بتضيع في البوسطة . لو

ما رحلهاش بالمرّة يكون أحسن ، والمشولية تبقى متوزعة بيني وبين العموم في مصر . والجوابات العادية دي ما عليهاش كنترول . وغايته لما يشوف تحليل أن جميلة اتأخرت عليه في الرد يكتب لها تاني من الإسكندرية ، وح تفهم أنه راح هناك ، وتكتب له العنوان الى عارفاه . إيه العنوان دا أنا ما أعرفش ، هي لازم كتبت له عليه كام مرة وحافضاه كويس .

واحتفظ عباس بالجواب . جاءته أم أحمد فhez لها رأسه . عادت بعد الظهر « مع الأسف ما فيش » في الصبح مرة أخرى : « لسه ما جاش » : بعد الظهر . « ما كنش ينز » تاني يوم : « النهاردة الحمد ما فيش بوسطة » يوم الاثنين : « يمكن العصر » في العصر : « يمكن في الصبح يجي » . كل هذا والجواب مطبق بظرفه في جيبه .

« عاوز أكلها وأفهمها . أقول لها تحليل راح الإسكندرية . لكن مش قادر . ما تعرفشي أنا في الأيام دي كنت متعذب قد إيه . ولسه اللي جاي ألين وألين » .

في اليوم الخامس جاءه الخطاب الذي كان ينتظره بلهفة ، تحليل كتب من جديد من الإسكندرية . لم يفتحه . ونوى أن يسلمه إلى أم أحمد لحظة أن يراها فيكني ما سببه من تأخير . ولكن أم أحمد لم تأت . انتظرها إلى العصر فلم تظهر . بعد التشطيب وضع الجواب في جيبه وسار الى مسكها . لم يقترب من رأس الحمار حتى رأى

النسوة حول المنزل كرش الملح . كلهن « مبشقات » . دق قلبه
وكذب وسواسه . وسأل فأجيب :
أم أحمد تعيش انت .

وحلا حواله صراخ النائحات ، ونخيل إليه وهو مشقت الدهن
أن كل هذا الجمع الأسود كسرب من غربان الشؤم ، يصوت عليه
وعلى مصيبتة الثقيلة وبخته المائل .

« وقفت مذهول . طب ماتت ماتت . مرة كركوبة في داهية
لكن الجواب اللى في جيبي أعمل فيه إيه ؟ الغلطة بتاعى بدل ما تتصلح
اتهببت زيادة . ح اضطر أرجع الجواب للعموم وأقول عليه :
(المرسل إليه متوفى) . لو كنت ما بوظلش الجواب الأولانى كانت
جميلة عرفت مطرح خليل وكتبت له على عنوان جديد بعد موت
أم أحمد . واتفقت وياه على حاجة . بجيت أنا بسلامتى وقطعت الخيط
الى بين الإثنين . والمصيبة أن الغلطة دى ما تحصلش إلا والبنت في
كرب . تقريباً بتستغيث . ح تقول عليه إيه ؟ لا زم ح تفهم إنه
يتهرب منها والحدع مظلوم . ويمكن كان يحى لو كتبت له مرة
ثانية . مين يعرف ؟ وأرجع أقول بخلقوا الكل سوا أنا عاوز أخلص
نفسى وبس . حرمت ألعب في جرابات العيال دول تو ما يكتبوا
لبعض من جديد . لكن ازاي ؟ ازاي أتوصل لحيلة ؟ ما يمكنش في
بلد زى دى تشمم على بنت أو تسأل . وتساءل مين ؟ دانا غريب
وعازب . وبفرض عرفتها ، أكلها ازاي ؟ مشيت مش حاسس

بنفسى . أبص للبنات اللى فابتين . ياترى ما تكونش دى جميلة ؟
ولا دى ؟ ممكن دى ؟ قايت وحاجة خلتنى هجعت على أول واحدة :
— جميلة ؟

هربت منى ! والثانية :

— ما تعرفيش جميلة ؟

خافت وجريت ! والثالثة دورت وشها للحيط ، ووطت .
شوية شوية ح تقعد ع الأرض وح تعيط :

أظن دلوقتى ح تضحك لما تفتكر بلاغ العمدة الأولانى ضللى .
وازاى انتز الفرصة دى واشتكانى . أنا كذبت عليك وقتها .
ولما سبتك كنت عيان صحيح . ما اقدرش أقوم من السرير . جات
لى حتى بقيت أهلوس يمكن جمعة .

فى الوقت ده جه للمكتب بدل من أسيوط واستلم الشغل .
لازم جميلة كتبت مدة غيابة تحليل على عنوانه بالفجالة تتعجله وتقول
له على موت أم أحمد والغالب — زى ما قلت لك — أنها فهمت على
عنوان جديد يكتب لها عليه . دا كله علشان لما قمت من العيا
واستلمت الشغل تانى ، لقيت جواب منها على عنوان الفجالة . جواب
قصير تقول له إنها مستنية الرد بسرعة . وضرورى يجي قوام ،
وطبعاً ما كانش فيه مناسبة تجيب له تانى سيرة . عنوانها الجديد للغاية
دلوقتى ما عرفتش ولا اقدرش اضمن يكون هو إليه . لكن تحليل
عمل إليه ؟ لازم فضل هو راحر يمت فى جوابات على عنوان أم أحمد

ولا حش يأخذها .. علشان أنا كد كلمت البدل ، وعملت حجتى إنك
جديد فى البلد ولا يعرفش حد ، وسأله :
... عندكش جوابات لسه ما وزعتهاش ؟

... فيه جوابين ثلاثة . لكن ما تخافشى . أنا روقت لك الشغل
تمام . حتى واحدة أظن اسمها أم أحمد كان لها جوابين رجعتهم
للعموم ، علشان ناس قالوا لى إنها ماتت .

بعد كده جه جواب تانى من خليل . فتجته . إيه الحكاية ؟
ما بردش عليه ليه ؟ هو زعلان من زعلها . ما لهاش حق تزعل
ما دام فهمها علره . وجواب تانى بعد ده بعشرة أيام تقريباً .
لسه زعلانة ؟ إذا كان فيه حاجة مزعلها لازم تقولها له . وهو بس
ح يكتب لها جوابات على فشوش وحاجة زى دى ! وبعد كده سكت
خرس . ولا جواب تانى جه منه بعد كده .

الجوابات دى كلها بقيت أخذها . ما أرجعهاش للعموم .
وليه الفايده ! وكنت يا عمل كده فى جوابات جميلة . كل يومين
والثانى يرمى فى الصندوق جواب منها . جوابتها وخرة اللى راحت
مدة غيابى ع الفجالة ، طبعاً لسه ملقحة فى الشباك هناك . ما حش
يأخذهم .

وتايت نظرة عباس ونصلب وجهه ، وسمرت عيناه على مرمى
بعيد . ليس فى وجهه أثر للروح الخفيفة المرتعبة الهائجة . تمثال
من البرونز ، يقصد صانعه إبراز قسوة اللحم ، وصلابة خطوط

الحسين ، والحنن البارز من أثر المجهود . تتبعه حسنى بنظرته ، وهو
يعجب كيف تنقلب الطبيعة فجأة . هل يكون هذا علامة على
أن عباس مشرف على مرض آخر ؟ أحاده للحياة بسؤاله .
— وجميلة ؟

عاد عباس لحديثه أهلاً صوته وأخفت نغمة :

— « جميلة ؟ يمكن بعثته ٢٠ جواب . كل يومين ، وفي
الآخر كل يوم . ما عرفتش مين اللى بيحبهم للبوسطة . كنت دائماً
الآخيم الصبح لازم حد بيرميه قبل ما أحضر للمكتب . فى الأول
سألت : ليه ما بردش عليها ؟ هى مش حاوزه منه حاجة ، بس
يفهمها ليه سبب سكوتة . »

ثم أخذ كل خطاب يقصر عما قبله . كالنار تنطفىء وتطامىء
رأسها على مهل . حالتها سيئة ، ومصيباتها كبيرة ، ولكنها واثقة فيه
لا يفارقها اعتقادها أن كرسها إلى فرج ، فهذا جنت هى فى حياتها ؟
لا تذكر أنها صلت بقلب بارد ، أو أذنت فى حق الشاب . يارب
لماذا ؟ من وسط آلاف الفتيات يختارها القدر ليديقها المر ؟ من أسايح
وهى لا تخرج من البيت حتى ذوى لونها ، وأمسكت عن الأكل إلا
ما يدفعها إليه جوعها .

وساعد جميلة على التهرب من نظر أبيها أنه قلما يأتى لمقره إلا
ليناام . تجارتها تشغل وقته وتضطره إلى السفر لأسيوط . فى المرة
الآخرة عاد مع الليل بعد غياب غير قصير ، ودخل وفى حضنة
بطيخة .

— جميلة ! فأجابته أمها :

— البنت حياة شوية . سيبها .

جواب واحد لا يتغير منذ زمن . سار المعلم سلامة إلى ابنته .
لما رآته — وهى فى فراشها — نهضت واقفة . الغرفة معتمة والنور
ضئيل . اقترب الرجل من ابنته ووضع يده على رأسها ، وسقطت
نظراته على جسمها . ورفع وجهه ، فإذا به قد شاخ فى اللحظة الضئيلة
سنين . هو « العضة » الزرقاء حقاً . وجهه فى لون ومادى متطوىء
ذقنه معفرة وشفته « منيلة » . فى عيونه لمعان أصفر ، وكأن رأسه
صغرت فجأة ، فالعمامة تنزلق ، وهى ثقيلة الدم ، فتتضم نصف
أذنيه ، وأدار وجهه لينادى زوجته ، فأنفلتت جميلة وعادت إلى
فراشها نظرة أخرى ثم خرج .

ونسى المعلم سلامة عشاءه ، وفضلت البطيخة صحيحة .

« رجعت جميلة كتبت تحليل جواب طويل . لازم أبوها مش
ح يسكت بعد كده . خايفه منه . خلاص ما لهاش أمل . ثلاث
أربع أيام ما خرجش من البيت . ينفخ ويتهد . كل ما تحس برجله
جاية ناحيتها قلبها يقف . لو يحى تحليل ولو يوم واحد ، كل شىء
ينتهى . فين هو ؟ فى عرضه . فى طوله . تبوس رجله . يعمل فيها
معروف » .

مضت ليال لم يغمض لها فيها جفن ، تنصت لوقع الأقدام وتظن
الظنون . على أى شكل ستلقى حثفها ؟ أختار حبلاً أم سكيناً ، مخدة

مبللة أم سماً نقيعاً ؟ ونسيت جميلة خليلاً وصمته وكذبه وخيائته ،
واقترعت اهتمامها على حياتها . لو تستطيع أن تهرب من النار لنجت .
ولكن أين السبيل وهي محبوسة ؟

« كتبت له الدور ذا يا يلحقها يا يلحقهاش .. لو ماتت مقتولة...
يكون موتها علشانها . يبقى ما ينسهاش .. ويفتكر في تربتها .. »

آخر جواب كان بتاع النهارده . وأنا رايح المحطة الصبح فتحته
وقريت ، كلمتين اتنين بس .

« خليل .. الحقى ! »

عمرى ما شفت واحد يطلع في الروح . ولا شفت ميت .
الكلمتين دول نخلو جسمي يقشعر .. تعرف الحروف لما يشخر
ويرفض وقت ما يندبح .. والفرخة لما تجرى ورقبتها مقصوفة ..
كل ده مش حاجة جنب الكلمتين دول .. الجواب ده مسكته
وقطعته .. الباقي اللي في الشنطة زى الرصد قدامي .. هما ح يكونوا
أهم من جواباتها اللي ضاغت طغى ! ينفلقوا أصحابهم ويروحوا
في داهية إذا كالوا عاوزين .. جوابات مسجة سخيفة دما بارد ..
رحمت نازل عليهم وهات ياتقطع .. تقولش ساعتها إني باقطع في
هجوم واحد بخانقه .. بغل .. وبعدين ما حساشي بنفسى .. دخت
ورحمت في دنيا غير الدنيا .. اللي غايظنى ساعتها أن الدنيا دي حاجة
سخيفة .. إنيألى أنها طرشة . تفضل معها صرخت فيها ماشية زى العادة
ما فيش حاجة تغدر توقفها .. ليه زى الطرشة ؟ علشان عمرها ما تبص

وراهما .. البنت المسكينة دى داسبها وفاتت عليها. أنا لغاية دلوقتى
ما اعرفش جبرى لها إيه .. أكثر من كده . عمرى ما شفتها ! لكنى
أنا متأكد أن البنت دى ماتت غدر .. والسبب أنا .. ما فيش حد قتل
البنت دى غيرى أنا . .. أنا ..

وسكت عباس فخلا حسنى لنفسه . هو كالمترج فى السرك
تهزه مخاطرة اللاعب ، وإن لم يفته اليقين أنها ككل ليلة —
تنهى بسلام . بيد أن عاطفته جعلته لا يتخلف عن عباس فى قصته ،
بسايره فكرة فكرة ، فاهماً دواعيه . مقلداً أحزانه وهمومه ،
ويشاركه الندم ، ويرثى له كيف هوى حظه وخاتته يده ؟ ويعتقد
كما يعتقد عباس أنه اغتال هذه الفتاة بهوته ، ولكن حسنى يعلم أيضاً
أنه يستطيع بمجهود صغير أن يغير من نظرة عباس لماضيه ، ويعيد
إلى هذا المريض ثقته بنفسه ... ولكنه وهو الخبير المحرب
لن يقصد إلى غرضه بمحاولته التقليل من حدته وهياجه ، أو بأن يفتح
له عينيه ليريه مبالغته الظاهرة وتهويله . فهو يعلم أنه لو فعل ذلك ،
لما زاد شعور عباس إلا التواء ، وانكمش فى نفسه يأكلها يأساً
وندماً .. فخير ما يفعله معالج الأعصاب ، أن يؤمن بقول المريض
لا حيلة ، بل اعتقاداً .
التفت إليه حسنى وهو يتسم :

« ومن اللى فى الدنيا دى كلها مشول ؟ »

وسكت فجأة ، كأن بدأ وضعت على فيه . جملة يتصيدا

ليستخدمها وهو بعيد عنها ، فلما خلقها لسانه ركبته فهوى تحت
ثقلها . . كصدمة مثل بقاء عند ما يستيق على أن دوره
يلبسه . .

عادت الحياة لوجه عباس وإقتراب إلى حافة فراشه !
« طب قول لي أعمل إيه ؟ أحكى لهم في التحقيق ع الحكاية ؟
ولا أسكت ؟ »

- أحسن شيء ، تكفي ع الخبر ما جور .. »
ترك عباس فراشه ، وسحب من تحت سريره حقيبة اسنادات
أركانها ، ومد يده يزيح أكواماً من تياب مبشرة ، ثم أخرج
من تحتها رزمة رماها على المائدة : « آدى الجوابات كلها .. أحسن
شيء تاخدهم أنت .. أنا مش قادر أقطعهم .. ويمكن يلاقوها
عندى .. »

جمعها حسنى بين يديه .. رزمة نجفة من ورق رخيص ...
وساد في الغرفة صمت ، جفون حسنى لا تستقر ، وانتبه الرجلان
على صوت جرس الكنيسة الصغيرة يلقى إشعاراً بموت .. يكاد ينطق ،
فقد عبر النحاس في بعض الأحيان عن منتهى حزن الإنسان وألمه ..

قصة في سجن

أزال الواجب المتكرر شعور الشاويش وهويـزج بالمقبوض عليهم إلى غرفة السجن . ولكنه مع هذا الرجل متفـجر ، ملتوى القـم ، قامى القبضة ، يتلذذ بـشتمه وضربه بالكف على قفاه .. لا لأن عينيه تقع على ساقين غشاها القشـف ، أو لأن أنفه زكـمه رائحة كريهة تنبعث من جلابـاب أزرق قـلر ، مرقع في نواح عديدة بألوان داكنة — فهذه أشياء اعتادها من الفلاحين الذين يمرون عليه — بل لأنه منذ علم أن المتهم أحد جماعة الفجر الذين تطاردهم النقطة ، وهويـرمقه بعين كارهة . لم تكن نظرة رجل إلى رجل ، بل استعراض نوع راق لفصيلة منحلة . لا تقع يده على كـتفه إلا تملكه تأفف قريب من الغثيان ..

الفجر ! هل هم من بنى آدم ؟

دخل الغجرى غرفة السجن وعلى فمه ابتسامة يبعثها الارتباك فهي باردة سخيفة ، زادت بلاهة وطولا عندما وقع نظره على شاب جالس في ركن ، فراه يتنسم أيضا .. أشاح عنه بوجهه وقبع في ركن آخر ، وعهد إلى التفكير في نفسه ليتسلى .. لم يطل جموده .. وعاد بعد قليل يختلس من الشاب نظرات سريعة أنعشت فيه شيئا فشيئا شهوة التحدث . فتقدم للشاب يسأله عن اسمه وبلده ونهمته ، وتشعب الحديث . وجاء اسم مجرم شهير ، فذكر أنه يعرفه ، بل بينها نسب بعيد . فسأله الشاب :

— « أنت بلدياته ؟ »

— « أيوه .. أنا وهوا في شيخة واحدة . »

— « أنا سامع من العسكري يقول لك يا غجرى .. إيه اللي ملك

على الغجر امال ، إذا كنت فلاح ؟ »

وزادت الضجة في حوش النقطة ، وسمع صوت البنادق توضع في « السلاحيك » ، وأحذية العساكر ترن هنا وهناك . وجاءت « داوزية » من ثلاثة خفراء ، وجلسوا يتحدثون بجانب السجن ، ووصلتهما كلماتهم واضحة ، وضحكاتهم كلها . اقترب الغجرى من الشاب حتى جلس بجانبه .. لم يختل بفلاح منذ مدة طويلة . وفي وحشة السجن ، ووسط الضجة غير المألوفة ، شب في قلبه عطف وحنان لزميله . وقد يكون من أثر هذه الظروف كلها أنه

بدأ يتكلم غير محتد ولا مراوغ . لم يكن يقص حكايته ، بل كان يعيش ماضيه من جديد .

« كنت مستأجر من أنحو العمدة ١٤ قيراط ، وكان عندي كام غماية أطلقهم في الغيط وقت الربيع .. لما جبه النيل بقيت من غير شغل . فصاحب الطين قال لي : يا عليوى ما ترحش وانت بطال بالغنم بتوعى لغاية المنيا ، توصلهم لواحد تاجر هناك ، معرفة ولك على ياعم إني أبسطك خالص . قلت له : الطريق واعر على . قال لي : أنت واعي في الغنم وأنا مختارك ، أنت رجالي ، الطريق اللي انت خايف منه سهل . خليك مع الإبراهيمية مبحر مبحر تلق نفسك حدا المنيا . وراح الراجل اشترالى مكين كويسة وادانى حمارة ، وسلم لي ٦٥ رأس . فخرجت بهم من البلد والميه في الحوض علو قدم .. وفضلت سايق على جسر الإبراهيمية والغنم قدامى .. ! »

... وليس الحروف — رغم أنه حيوان غير نفور — بسهولة القيادة . فخطوته بطيئة ، إن لم تعد حثاً مستمراً وقفت . وأفراده المتفرقة لا تجمعها سوى عصا متيقظة . وكان عليوى تارة (يخلق) على السيارات المتتابعة و (يحجز) الغنم بنبوته الطويل ، وتارة يتزل في بعض الغيطان وراء كبش شارد وقد يلبث النهار كله لا ينطق إلا بشين يعطها ويصفر بها . ونبوته الطويل ينقر ظهور الغنم نقرات قوية تضمها في قطع واحد يسير ، فتثير أرجله القصيرة الدقيقة سحباً من التراب . تتوالى نداءاته (ماء ماء .) بعضها بجاف

قصير ، وبعضها يكاد يتكلم . وتسبح فيه استغاثة لاشك فيها .
منها الأجنش الغليظ يخرج من حلق أيبسته السنين ، وبعضها كذبذبة
وتر رفيع ، تبعثها أجمال صغيرة لم يتبين لها بعد ظهر من بطن .
كل سيرها وثبات جانبية ، وتناطح وهمى . يتطاير منها النشاط والمرح
فقطيع الغنم - هو الآخر - يحمل بين طياته السلسلة التى تربط
الحياة بالموت !

وخشى علىوى على حمل صغير أن يضل ، فرفعه من ساقيه ،
فتمالت مأماته وتكررت . وسار به يشق لنفسه طريقاً وسط الغنم ،
ويضع يده هنا وهناك ، فتقع على موج من الصوف قد ألجته الشمس ،
وذاب فى عرقه تراب كثير ، فهو متلاصق ساخن تحته أجسام
محمومة صابرة على ألمها . حتى وصل إلى الحمار ، وفتح كيساً ووضع
حملة . وكان يتبعه فى سيره ويشق الطريق بمجهود أشد من مجهوده
وإرادة تكاد تنطق أن لن يثبها عن عزمها شيء . نعمة هزيلة ،
لها عن كل مأمأة جواب ، فيه نداء حنون تحق تحت ولع الأم وجزعها .
ولم يكن مظهر علىوى ينبئ أنه يستطيع تحمل عبء القطيع ، فهو
فق لا يزال فى ميعه الصبا ، قد لا تلاحظ العين أدلة ورائته الفرعونية .
من قامة مديدة ، وصلبر عريض ، إلا أنها لا تخطىء تخافته الواضحة .
فليس هناك تناسب بين قدميه المفرطحين وساقيه الرفيعتين . تحت
ترقوته هبوط غائر ، قد يكون من الجوع ، تقيم عليه عظمتان
بارزتان ينتهى عندهما شعر صدره المكشوف . وجهه من جلد وعضل

مشدود مها جرى لا يهتز فيه لحم . وإن حرك فكه ، تكسر سطح صدغه فجوات وكرات ، ورغم هذا كان لا يفتر عن الحركة ، تجدد نشاطه قوة خفية تسيل في الوادي ، ولا تقل عن النيل جرياناً .. لم يفتأ صنم كالمهرم . ولا قبرتها آلاف السنين .

كان عليوى يقطع المسافات ، ولا يتبقى في ذهنه من الطريق سوى أسماء القرى أو قباب صغيرة بيض لبعض الأولياء ، منهم من يعلو الجسر ليدفن البلد حوله موتاهها ، ومنهم من يهبط للحوض لينعم الزرع ببركته . فعليوى — كفلاح . ولأنه يجتاز الطريق لأول مرة ، قليل الصلة بالأماكن التي يمر عليها ، لا يلفتة إليها سوى مصلحة شخصية . فلم يؤثر عليه بشيء جسر الإبراهيمية ، وهو يبدو تحت تأثير شمس الصعيد المتوقدة في منظر كربه تظله سحابة من التراب المنعقد ، يمتد أمامه شريط ضخم من التراب المكس ، مشرذم الحوائى .. يتوالى هبوطه وارتفاعه ، ويردد سطحه غير المستوى بين الضيق والسعة . يزيده قبحاً أنه كثير الارتفاع ، فلا تبدو من الأشجار المغروسة عند سطح الماء سوى فروع قصيرة تحجب المنظر ، ويستطيع السائر أن يلمسها بيده . من عليوى بمن يخبره أن ليس كل ارتفاع الجسر من التراب . ففي أحشائه أيضاً هياكل كثيرة من عظام الفلاحين . وقد يكون فيهم بعض أجداده — الذين فتحوا التربة بطول أربع مديريات بمعاولهم البسيطة . وربما بأظفارهم أيضاً ! ! وكان يموت الفلاح فينال التراب عليه ، كما هو عطفه ومعو له ، وجلبابه الأزرق الوحيد .. أكل الجسر أجسادهم ، ومحا لحومهم . وما على جلودهم من أثر الكرايبج .

« ... في رابع يوم بعد أذان العصر بشوية ، حصلت نزالى بجانب
و كنت ناوى أمشى طوالى وأبات بالغم في صنبو ، لكن ما عرفشى
ليه اللي خلانى أوقف الغم قدام البلد دى ، إن قلت كنت تعبان
أكذب .. يمكن علشان لقيت على الجسر و ابور طحين خربان .. »
فقاطعه الشاب في لهجة أقرب للهزؤ ، أو إنصات الرجل للحديث
طفل .

« ولا قسمتك جات كده .. »

وكان الشاب لا يزال يبتسم . لم ترتفع عينه عن عليوى تراقب
فيه منظرأ مسلياً .. فمذ شعر أن عليوى يؤاخيهِ . وهو يحتقره وكلما
قاطع الحديث بتهكماته ، وكثيراً ما فعل ، اهتز جسمه سروراً ..

« ... ربنا عالم .. أنا ما صدقت لقيت للوابور سور كبير ،
رحت صافف الغم جنبه وقلت : الليلة دى تنهى بالنوم ، ولا حدش
يهرب منك وتفضل تجرى وراه .. واستكنيت .. أدنت العشا ، بعيت
جنب الغم وقلعت جلابيتى وخطيت راسى على دراعى ونمت .. لسه
عينى ما دخلتش في النوم إلا ولقيت جماعة جايين على من ناحية البلد
وسطهم حمارين ، وقدامهم شوية معيز ، لما حصلونى لقيتهم جماعة غجر
قلت أحوذ بالله من دا حظ يمكن ياواد يفوتوا طوالى .. وقمت ركنت
نفسى أشوف ليه اللي ح يحصل .. جم حداى ووقفوا .. وشويه لقيتهم
فارشين حوالى .. »

عند رجلا إلى الحمبر فأنزلوا منها أستاراً رقيقة . أمالوا الواحد على الآخر ، فإذا أمام عليوى خيمتان صغيرتان .. ودقوا أوتاداً ربطوا فيها معيظهم ، وأخرجت امرأة « حلة » وجلست تهربكها بالتراب ، ثم ذهبت إلى التربة . وجمع أحدهم عصياً ثلاثاً في حزمة ، ثم قردها وثبت قوائمها بالأرض ، وجاء بقدر علقه من وسطها ، وأشعل النار تحته ، ومال بوجهه ينفخ فيها وبعد قليل انتشرت رائحة الشاي ، وانتبه الغجر لحارهم « وواحد منهم قال لي : اقضيل اشربلك فنجان ويانا .. قمت رايح وقعدت » ، فسأله الشاب :

— « كان بقالك زمان ما شربتش شاي ؟ »

— « ما انت عارف الفلاح عبيط ، ما يقولش في عزومة لأ . لكن أقولك الحق إلى نخت .. كل الحكايات في بلدنا عن الغجر أنهم حرامية وخطافين ، ولهم حيل ما تبيش ع البال . أنا قلت في عقل ياواد اتفرج ع الناس دول .. كانت وياهم بنت ، فضلت ثروح وتيجي قدامي ، محدثش بالي منها إلا لما شفت الرجالة مكشرين لها . ما حدش يكلمها منهم بلطف وإنسانية ، إلا كله بشخط ونظر . ساعات ترد وساعات تمشي ساكتة . ما عرفتش عملت فيهم ليه لأنهم يشتموها من غير ما يسمعوها (يا مجنونه ! ح تشوفي .. ح نوريكى) . بقيت بعد كده كل ما تفوت قدامي أبص لها . .. فوجد فيها وجهاً شديداً السمرة ، يكاد يكون كامل الاستدارة ، وأنفاً دقيقاً ، على جبهتها نقطة خضراء . وعلى ذقنها وشم غص . قصيرة القامة ، معتدلة الظهر ، رأسها كثير الالتفات تنبيء عن عصبية قوية ..

وكانت تحرق غضبها بضغطة ظاهرة على شفرتها زادت بها طولا وضمورا
ولما جاءت تناول الأقداح ، فاحت له منها رائحة غريبة عن أنفه ..
خيط من عرق وقذارة ، وعطر فيه قرنفل وشند (١) ولم يشعر علىوى
إلا وهو منطلق في الحديث ..

« فضلنا تشكلم .. وفضلوا يسألوني عن الغنم : رايح بهم فين؟ ومعاى
كام ؟ أنا خست يكونوا بيسهوني عن حاجة والا ملعوب . قلت
قوم حوش عن غنمك . رجعت مطرحي مقدرتش أيام .. يادوبك
عيني بعد نص الليل غفلت ، إلا وصحيت على ليح الكلب . وأبص ألاق
غنمي متفركة قدام ثلاث عساكر ، خيولهم عينا في الظلام زى الشرر
لسه فاكرهم لدلوقي .. بقيت مخبول أجرى وأقع .. كل ما الفت
ناحية العجر ألاق العسكر نازلة في الخيام هد ، والنار انطفت وبقت
دخان . وسعت الشتمة نازلة فيهم : « يا حرامية .. يا خطافين بالولاد
الكلب .. » دراعاتهم تهتر فوق رؤوسهم ، يزعموا : « في عرضك
باسعادة الشاويش .. » ولا كن ولا فائدة .. لمهم كلهم في
سلسلة وأنا فضلت أجمع في الغنم ، لغاية ما حملت ربنا وانلعت عليهم
رجعت مطرحي ، جيت أشيل الجلاية وأنام ، ما أبص إلا والاقى البنت
العجرية مكومة نفسها ولا زقة في الحيطه أقولك الحق ارتعشت من الخضة ،
ياخبر اسود ا ليه التهمة اللي جياى دى ؟ ا

— بنت إناب هنا ؟ إيش جابك ؟ بتعملى ليه ؟

(١) نبات عطري يستخدم للبخور .

شاورت لي بصباها .. لغاية ما بعثت العساكر خالص اترمت
على وقالت لي :

أنا في عرضك .. دول كانوا عاوزين يموتوني .. فاكرين
أنا اللي دليت عليهم في سرقة القوصية ، حبسونا كلنا . وأول ما ظلم
سرقوا ثاني .. في عرضك خدني وياك .. مطرح ما تروح أروح ..
بس أبعد عن الناس دول ... »

ومدت الغجرية ذراعيها وتعلقت برقبته لم تكن ترتعش ، ولا كانت
سريعة التنفس ، وكل ما تغير فيها أن زالت ضمة شفقتها فبانتا متضخمتين
وانفجرتا عن سنين كبيرين ، وتركت عينيها مسبلتين ، لعله التعب ،
أو كأن هذه أول تجربة صادفها عليوى ، ورعا أيضا لأنه لم يشم من
قبل رائحة الشند والقرنفل عن قرب .

سواء كان هذا أو ذاك ، أحس عليوى بقواه تلوب بين يديها ،
وترأخت ذراعاها بجانبه .. وعادت للذهنه صورة هذه المرأة وهي تمر
أمامه عندما كان يشرب مع رفقاتها الشاي ، وتذكر لفتات رأسها .
ولم يكن يدرى وإن كان قد أدرك الآن — أن لهذه اللفتات جاذبية
عجيبة وسحر قوى .. وطال صمته ، يعطه ضميره بأنه من آثار
تربيته التي علمته منذ الصغر أن يهرب الفجر ويخشاهم . ولكنه لم يرد
ذراعى المرأة ، بل أحس بعد قليل أن ما انحل من أعصابه عاد ينفر
في جبهته ، ويجف في حلقه ، ويرتعش في قلبه . واجتمع هذا وذاك على
ملء عروقه بدم يثلى ويطن في أذنيه .. وإذا بلذاعيه على ذراعيها
يتبادلان ضممتها ..

وزاده التهاباً أنها ابتدأت تقرب منه شيئاً فشيئاً .. وكان يدفعها نحوه شعور هو خليط من الفرح والعناد .. وربما لم يكن شوقها للرجل ، بل لتذوقها لذة حرمتها في ليلتها الأولى . ثم ما إن بادلتها الرجل ضممتها ، حتى انطلقت من مكمنها رغبة قوية طالما كبثت فكانت في انفكاكها هوجاء .. ولكنها حريصة على نفسها إلا تفنى سريعاً .. فهي تضغط على حديثها وتغطي عنفها بستار من الاتقاد واتزان الخطورة .. وجعلت كل همها أن تعطي للرجل ما لم ينله من قبل وأن تأخذ منه أكبر ما تستطيع .

وكانت وفية على فمها تلصق في نظرتها ، رغم الظلام ، صورة الانتصار . ولو كان للفريزة جسد وأشرفت عليها ، لمرت رأسها رضا وافتخاراً ، ولدافعت عن نفسها بأنها لم تكن لترضى من أغلب الناس بالعبارة المحترمة المتسرلة في الحياء والخفر ، إلا لأنها تنقل لأفراد قلائل منهم ، وفي أوقات متفرقة ، كامل قوتها ، فيهبونها أرواحهم ويدعوونها أن تحمل بهم من غير شريك ..

ولم تطل القبلة ، لأن المرأة استيقظت وتنهت لموقفها فقامت وسحبت الرجل من يده ، ودخلت من ثغرة في سور الواهور ، وشعلها الظلام .. وكان على الكلب هذه الليلة أن يحرس مع الغنم سيده ..

... « قصره بيتت معاني الليلة دى .. وقلت لها : يا بنت الحلال أنا أخاف الله .. وأحب حكم الشرع .. قالت لي أنا وهبتك نفسى .. قلت لها : وأنا قبات ، وإذا سمع عنى حد أقول : فلاحين كثير

بيجوزوا في البنادر بالوهبة ..

قال له صاحبه :

« — لا كن مش ع الجسر .. ومش مع الفجر — ساعتها ما كنتش
دارى بنفسى » .

... لا يدري كيف نام وهو يسوق القطيع ، فطلع عليه النهار وهو
من المسوقين أمام قدر لا تفرق عصاه في دفعها للأحياء بين بنى آدم والغنم ..
ولكنه رغم هذا يشعر بأن هذه المرأة غمرته بلذة جديدة عليه ، فأنقاد
لها كأنه متعب ، يجهد بعد جهد فراشاً وثيراً .. وترك عليوى نفسه
ترتاح وتستند إليها .. لا يهمه وهو في هذا النعاس الموصول — أى قيد
غلته به .. ما دام تيار الحيوية الذى استيقظ فيه — ولا يستطيع بعد ذلك
كتمانها — لن يجهد في غيرها مصباً يتدفق فيه ويزخر .. ونسى عليوى
من أيامه ما مضى ، وقصر همه على الساعة التى هو فيها .. وفي الصباح
كان يسير وراء القطيع وهو لا يزال مدهوشاً ..

... « مشينا تانى في الفجر وأنا مدروخ .. حصلنا ديروط .. لا
لا ... نسيت . بعد ما مشينا شوية بصيت على الكلب ما لقيتش .. رجعت
أدور عليه ، لقيته جنب شجرة بيطالع في الروح ... » راقداً بمؤخره
على الأرض ، رافعاً رأسه على مقدمين مرتعشتين ، يهتر جسمه متشنجاً
وحديق الكلب في صاحبه ، ولمعت في عينه لحظة بارقة أمل ، ثم
أطلقها سريعاً حزن عميق صامت .. لم ير من قبل حيواناً تبكى مثل
عيني الكلب الحامدين ، وكانت تكلمه وتقول : « هل هذه آخر مرة

تراني ؟ ، وفتح فمه .. ولكن الموت كان قد انتهى ، ووضع يده على هذا الفم فلا يستطيع نباحاً .. وانحدرت بدل الصرخة سيول من لعاب لزج ، تنبىء عما في جوف الحيوان من غليان وألم لا يعلمه أحد .. لم يفهم عليوى سبب الحادث .. لعل أحداً من الناس ضربه .. وكم من فلاح يضرب الكلب الغريب بقسوة ، أو لعل صبياً قذفه بحجر هذه الشهوة التي تشمل بها أول فكرة إجرامية في رأس الطفل .. ومد يده بتحسس ظهر الكلب فإذا هو سليم .. وشعر بالغجربة بجانبه .

« جت قعدت جنبي تنفرج . بصيت لها قالت لي : « سموه .. كانوا عاوزين يسرقوا غنماتك وانت نائم .. جم أجلمهم قصير ، وراح في داهية . ما ترعلش ، بكره تلاقى غيره ، وعلاشان نخاطرك أنا جيت لك منهم معزتين هما دول اللي في الوسط . قتلها : بتوعك المعزتين ؟ قالت لي : لا ، بتوعاتهم .. » فقاطعه الشاب من جديد .
— « أهى غنيمة وجاتلك بلاش .

— لا والله .. مارضيتش أبداً آخدكم لكن أعمل إيه .. »

إن استطاع كلبه بين يدي الموت أن ينبج ، فليتكلم هو بين يدي التي سلبته عقله .. ولم يكن شيء أنطق بالاختلاف بين الطبيعتين ، من الابنسامة الخفيفة التي تمشع على فم الغجربة ، تقابلها تقطية ظاهرة على جبين الفلاح .. ونخفت رعشة الكلب شيئاً فشيئاً حتى تلاشت حركته ، وتجرأ اللبالب على فمه وعينه .. وقام عليوى ليعود إلى قطيعه ، وقد تنازعت حشرة على كلبه يتركة وراءه ، ووجل من

المعزتين تسيران أمامه ، ويتمثل فيهما أول جرم ارتكبه في حياته
وهو الذي عاش طول عمره يرهب النقطة ، ويرتعش أمام العملة ، ، يحيى
المساكر باحترام ..

« من أول يوم لقيت الفجيرة شاطرة .. حوشت اللبن اللى تحلبه
وباعته ، وكنت الأول أحتار فيه ، وفطمت لى كام حمل ! ونخيطت
على النعاج كل واحدة كيس . نسيت هم المعزتين وقلت لنفسي
بكره ياواد ترجع لبلدك وتربي غنمك ، وإن كان معاك واحدة شاطرة
زى دى ، ليه ما تقبلش غنم الناس لما تودعها عنك وتسرح بهم !!
بكره رزقك ياواد يتسع .. وربك كريم .

« بعد كام يوم حصلت ملوى ، ولقيت فى مدخل البلد أرض بور
رحت ساب فيها الغنم ، وجيت عالجس قبالة قهوة وقعدت ..
البت غابت تحت مع الغنم .. كانت ليلة من أولها مقندلة زى الزفت ..
ما اعرفش جري للبت فيها إيه . انقلبت على فى الصبح قلة واحدة .. »
نزلت الفجيرة تجول بين النعاج بخطوة بطيئة ، لا شيء يدعوها
للبقاء مع القطيع . ولكن لا شيء يدعوها أيضاً للرجوع إلى عليوى .
بدأت تمل معيشتها الجديدة الواضحة تسير فى طريق معلوم وعادت
نحن لتجوالها القديم . كل لديها أن تطارد من بلد إلى بلد ، ولا تزيد
صلتها بمكان أكثر من ليلة . زالت الفورة ، ولم يبق من عليوى سوى
رجل هادىء تستطيع أن تثق بطيبته . ولكنها مع ذلك تندم على حياة
نصفها محبة ونصفها عداء . فالعجر أنانيون لا يقبلون الغريب بينهم .

وفد ظلت تخضع الرجل منهم ، لا عن حب بل عن اضطرار ، وكانت تجد لذتها في الصراع الدائم بين شدة مراسها وحقد أضغانها .
وأى لذة أكبر من أنها لا تخضع إلا بعد أن يعلو إلى فمها فيكاد يفرقها تيار ينسبها حقدتها . على عظمه ١٢ وكلما وافق الاسترضاء نقطة الانكسار تمتعت النفس بأقصى حدود النشوة ، أما الآن فهي تخضع ، سواء أكان التيار إلى قدمها أم إلى ركبتيها . لا تعرف لذة الشبع ، لأنها حرمت لذة الجوع . لم تكن تبغض عليوى ، ولكنها كانت تمنى لو كان من الفجر .

قطع تفكير الفجرية نور مصباح يضىء على الجسر حيث يجلس عليوى ، وبدت لها قهوة في وسطها - وتحت المصباح - دكة خشب عليها رجل بيده ربابة ينشد .. فتسبت أفكارها وجاءت تستمع لقصة (حبس مرعى ويحى ويونس ، عند الزناتى فى تونس ، ورجوع الأمير أبوزيد إلى الأطلال .. وتوالت صرخات الرجل ، تبدأ عندها مهمة الخالسين ، وكلهم اصباح بأذنه للقصة وللأشعار وكلما تقدم الليل ضاقت أنفاس المصباح ، يزيدها اختناقاً حلقة كثيفة من ناموس كالتراب انعقدت حوله رغم دخانه المتصاعد . ولف الكون سكون شامل ، وكانت السماء في ظلامها كأنها جناح وطواط حط على العالم . له بين الحين والآخر رعشة خفيفة .. هى سبب هزة هذه النجوم القليلة التى ترتجف ثم تثبت . ولم يستطع المصباح بأزيزه ، ولا المنشد بريابته ، أن يبدد بعض ما فى الكون من حزن جاثم .. هل الليل جنة

النهار ، فيكون هذا الحزن أنشودة الموت !! أم العالم في أسى ،
لأنه يشعر أنه يفنى شيئاً فشيئاً !! أو ربما كان من تأثير انعكاس
ما يحول في هذا القضاء من آلاف الأرواح الشرقية التي خلقها الله
حزينة موجعة القلب !! وربما كانت هذه السماء ذاتها إذا ظلمت الشمال .
عنوان البهجة وامتلاء النفس بالرضا والخلل ، وأصبحت هزة
النجوم رقصاً !!!

وثقل هذا الجوع على الربابة . فهي تئن بصوت متشابه . ووقف
العالم كله في ناحية ، والربابة في ناحية أخرى ، ودار بينهما حديث ،
وأفضى كل منهما للآخر بأسراره . وبلغ تأثر السامعين بالقصة ،
أن غاب المنشد عن نظرهم وتجسم لهم أبو زيد جالساً على الدكة
يصرخ فيهم صرخاته الحربية . واختلطت الأزمته في أذهانهم ،
لا يدرون أهو الذي بعث ليقص عليهم وقائعهم ، أم هم الذين نقلتهم
يد سحرية إلى عصره السحيق !! واختار الشاعر قصيدة يعلم من
تجاربه أنها تؤثر في السامعين . واختتم بها ليلته ، وكان آخر
ما تغنى به :

على ما جرى يا ويح قلبي لما جرى واليهن قيدني بسة قيود ا
مما جرى لي من هموم تكيدني وقت إيش يا ذاك الزمان تعود؟
نطق لسان الحال عن الدهر قال لي : زمان مضى ما عاد قط يعود ا
يا عين ا إيك على الزمان اللي مضى وأجرك على الله الواحد المعبود ا

هل كان يعلم الشاعر المجهول وهو يصف آلام أبطاله أن شعره
سيقابلها على الجسر فتتلقاه كضربة السكين ؟ ربما كان يعلم هذا
ولاً كيف تكلم عما في ضميرها كأنه يعرفها من قبل ، وعاشرها
واستمع لشكواها مراراً ١١ ودمعت عينها - ودموعها غزيرة
على كره منها . ثم استيقظت حديثاً وشدة مراسها ، وكبت همومها ،
وقامت تنام وقد اعتزمت أن تنفذ الفكرة التي تشاغلها في الأيام
الآنحيرة .

• صحيت من النوم لقيتها ماشية ع الجسر وجلابيتها تحت باطها .
كانت ماشية بشويش ، لكن فهمت طوالي إنها هاربة مني . . رحت
بجاري وراها ، حصلتها ومسكتها من ذراعها :

— رايحة فين ؟ .

— ماشية . .

— ماشية فين ؟

— مغربة للجبل . يمكن أتلّم على أهلي هناك . .

— لوجلك ؟

— أيوه ، خليني في سكتي وخليك في سكتك .

— يابنت الحلال ، أنا قلتلك إن الغنم مش بتوعى ، صاحبهم

في الدنيا ، وبيننا وبينها دلوقتي حركة كعب ، وأنا راجع وياك طوالي
للبلد .

راحت قابلالى طوالى :

— تغور بلك باللى فيها .

حلق الشاب فى عليوى كأنه ينتظر منه غصبة الفلاح يقبل كل
شئ . ولا تسب عشيرته ، ولكن عليوى فى الوقت الذى يتحدث عنه ،
كان قد فصله عن أهله وعشيرته حاجز رقيق . لم تُر الإهانة إحساسه ،
فبلمها . . واستمر عليوى فى حديثه :

— « قلت لها :

— بلاش نروح للبلد . طب نروح مطرح مانجى .

— تعال وياى .

— والغنم ؟

— هاتهم معاك .

— مش بتوعى !

راحت لاوية وشها زى اللى زحلت من الكلمة دى . ومشت
تانى ، وقربت تغيب عنى .. كل دا والشيطان يلعب فى عقلى .

وقف عليوى وكل عرق فيه نابض منيقظ ، أسكرته حديثه
قطاحت رأسه ، يقع نظره مرة على المرأة ومرة على القطيع ،
ووقف الشيطان أمامه ممسكاً بالميزان يبتسم له .. ثم هوت كفة
المرأة ..

.. « وراحت صارخ فيها :

— هوى .. هوى .. أنا جى .

وجريت للغم ، حاودتهم من ع البحر لصليبة مغربة للجبل .
ومشينا مش عامل للدنيا حساب .. وما نيش عارف أنخرنى ح تكون
ليه ..

فى الليلة دى شفت منها حاجة عجيبة .. كنا فابتين على عزبة ،
لقينا فرخة فى الطريق عما تلقط .. راحت البنت طلعت من جيها
خيط طويل مربوط فى آخره حباية درة ، ورمها قدام الفرخة ،
راحت لقطاها .. ووقفت فى زورها .. قعدت تحك منقارها فى
الأرض ، عايزة تصرخ مش طابقة ، والبنت سحبها شوية شوية
وحاطتها تحت باطها . وتوما بعدنا عن البلد دبحتها .. حصلنا الجبل ...
— استنى .. مين اللى أكل الفرخة ؟
— أكلناها سوا .

— واشمعنا ما عملتش البنت الحيلة دى قبل كده ؟
— أنا عارف .. دى كانت نازلالى بالسهم .. وأنا بقول ياسابل
سترك ..

— أيوه .. اللى يسرق خمسة وستين رأس يزور فى فرخة !
فصمت علىوى وارتفعت له تهدات طويلة .. وكان القمر
قد غاب ، ووصل إلى غرفة السجن المنفردة فى وسط حوش النقطة
بصيص من مصباح معلق على بعد ، وتوالت دقائق أرجل الخيل
قوية على الأسفلت ، ونهق حمار بجوارهم . ثم هداأ الحو من جديد ،
وعاد علىوى لقصته ، منكسر القلب ، قد زال حنائه لزمله ، فكان

منكمشا في نفسه يقتضب حوائله .. لم يكن يحيا ماضيه ، بل كان
يتذكر بجهد بعض ما جرى له ...

.. « قابلنا في الجبل جماعتها .. واختلت بالكبير بتاعهم شوية ..
الله أعلم اتكلموا على ، وشفنها بتشاور على الغنم ، والراجل بيص
وياها زى اللى بيعدهم ... مشيت وياهم .. بعد يومين ولا ثلاثة ،
لقيت الغنم نقصت راس .. الحق دمي فار .. مسكت البنت وقتلتها :
اللى عاوز يفقد حياته يقرب للغنم .. »

قالت لى : « إحنا دلوقت غجر مع بعض .. كل حاجتنا
ويا بعض . »

قلت لها : « غجر مش غجر أنا ما افهمش الكلام دا .. »
راحت لاوية بوزها على وقعدت ما تكلمنيش . جيت لها بعد يومين
وقتلها : يابنت الحلال أنا بعث أهلى وشرفى عاشانك .. مالت لى
تانى ، لكنها كانت بتطرخم على .. وكل ساعة تقول لى : ما تخافش
على غنمك الغجر ما يسرقوش من بعض .. برضه ألافى الغنم كل
لما تقرب على سوق تنقص راس ولا راسين .. كذبت على .. «
- « هى ما كذبتش عليك .. أنت عامل نفسك غجرى ، وهما
مش عاملينك .. علشان كده يسرقوا منك .. دانت نهية لهم ..
نهية حلال .. »

« - صفصفت الغنم على عشرة .. على خمسة .. قلت ديهده
ياواد ؟ ح تطلع بلبوس وألا ليه ؟ وفى ليلة استغفلتهم وقمت قبل
دماء وطنى ... ٩٧

الفجر ، ورحلت جارد الى فاضل ، ومشيت للسوق بعثهم وانفضيت .

— « استغفلتهم ؟ هما الغنم مش بتوعك ؟ »

لم يجب عليوى واستمر فى قصته :

« .. من قيمة جمعة أخذوني هيله بيله وسرقوا .. وسرقنا سوا ..

كيس قطن من غيظ .. امبارح بالليل مسكونا .. » .

وكان لابد أن يتلوق عليوى بعض ما يلقاه الفجر من الإهانات والمطاردة . وجاءت الليلة التى خبر فيها كيف تهجم الخيل ، ويقع السوط ، ويوضع القيد فى اليدين . . ولكن صحبة الفجر جعلته يستقبل الشتم والقيد والكرباج مطمئناً . . منذ سنة شاهد ماجرى للفجر . . فكان جزعه — : كتنفج — أكثر منه اليوم ، وهو مضروب يسير مكبلاً بالحديد للنقطة — . سنة مرت عليه لم تفن من عمره قلد ما هدمت من أخلاقه وعوداته . . كان فلاحاً يهيمه النبل والعمدة والنقطة وحدود أرضه يقيسها بالشبر وبالأصبع ، أما الآن فهو غجرى لا يهيمه سوى اليوم الذى هو فيه . . الدنيا كلها أمامه لا حدود لها . . إن استطاع أن ينال منها شيئاً فليخطف . . وهو سعيد .

وسأله الشاب من جديد :

— « والعساكر جابتها وياك ؟ »

— البنت ؟ لا يرخصه هربت .

- على الله ماتلاقيش الدور دا واحد تانى تجيبه الأرض . .
- لا . . حلاقية منين ؟ أنا تو ما اطلع أنخرج أدور عليها .
- لم يسخر به الشاب هذه المرة بل ثأب وتمطى ، ثم رقد على
- الأرض . وقبل أن ينام أنشد بصوت منخفض ، دون أن يتغنى ،
- هذا الموال :
- تقدر نسيب حبيبتك ؟ وإن كانت ياعين . . ساءتك
- ولا جابت المعروف الكاس دوتها لك . . وسقتك
- ولا رفعت عليك عصاية وقد امها . . ياميت ندامة ساءتك
- ليلي ليلي يا وعدى . . .

أبو فودة

يوم وقفة العيد خرجت من (المركز) «شحنة» المساجين الذين
قضوا ثلاثة أرباع مدتهم ، فضايق الشارع بحلقات الأهل والأحباب
تتخاطف نصيبها وتلتف به . كادت الزحمة تزول ، وجاسر هنيدي
لا يزال مكانه . ليس في المساجين غيره من بني شقير . لم يكن
في انتظاره أحد . فلم يبق له من الأقارب سوى ابن خاله إسماعيل ،
وآخر مرة رآه كانت قبل خمس سنوات عندما زاره في طوره .
لم يكن مبتشاً ولا حزيناً ، ولا خطر له أن يتساءل هل إسماعيل حي أم
ميت ؟ فهو مشغول بمراقبة ركاب الحميم والسائرين ، يلاحقهم بنظرة
خالية من الفهم وإن كانت حية ، يشد الدهول فمه إلى أذنيه ،
ولكن ابتسامته لم تولد بعد .

بعد برهة سار يقصد البندر . لم يصل وابلور الطرزي حتى وقف
من جديد يراقب جمعاً أغلبه نساء حافيات وسطهن غازية ترقص

حول قلة . جاءت فوقها تغطيتها بملابسها وقعدت . ثم قامت ،
فلذا القلة قد اختفت معها ... على وجوه المتفرجات سعادة صادقة
وإعجاب : كيف استطاعت ؟ ويسأل : المتفرجون : أين
وضعها ؟ والراقصة لا تزال على شغلها وتقصمها . تملأ الجو برنين
الصاجات .

وخرج من الوابور عدة نساء قد علق الطحين بوجوههن . على
رؤوسهن قفف . كبيرة لا يحملها إلا مثل رقابهن الغليظة ، فقابلهن
المنتظرات بزغاريد عالية .

في هذه اللحظة لمست كتفه امرأة . لم ترفع نظرها عنه منذ أن وقف
بجانبا ، ولكنه في شيء من الإلهام بادرها :
— « الطحين ده لفرح من بنى شقير ؟
— أيوه .. انت مش ابن المرحوم مبارك حاج جاسر ؟
— أهو أنا .. النهاردة بس خرجت » .

احتاط الشقراوية ببلدياتهم ، وتلفت وجه لوجه ، وتنقل همس من فم
لأذن ، فإذا من الرقع المتعددة ، تنشر من جديد في ثوب خاق ،
حادثته القديمة .

نجاسر عامل في محجر أبو فودة ، أمل أييه الرجل الطيب الشيخ
مبارك . ولكن نزع الشباب يقوده في معظم الليالي لمنفلوط ، يصرف
وهو مخمور كل مكسبه على حميدة : فتاة تقودها للفحش المستر

أمها العرجاء . هو في الجبل شرس ، شكس الطباع ، يعجب بقوة
ويزهى بها على زملائه . كلما اجتمع العمال ، ولا يعدلون بطبيعتهم
عن الدائرة والقرفصاء - كان هو بدون مجهود واسطهم ، وقامته
تلوهم . لهم جلسة يومية عند سفح الحجر ينتظرون المعدية . كان
الحجر في هدوء لا يشعر بوجوده ولذته إلا من خبر ضجته . وجاسر
يحكى لهم شيئاً يضحك ، فهو يصف لهم خناقة له مع رجلين على
الحجر انتهت بهربهما . وعن ثور هائج مسكه من مقوده وأوقفه .
أ يكون أقوى من هذا الحجر الذي يرونه أمامهم ؟ انه يراهن من شاء
منهم أنه يرفعه من مكانه .. وقفوا حوله . وماك جاسر . وباعد رجله
واحتضن الحجر ، يتمايل على الجبين وهو ينقل يديه ، يتفحص خصمه
ويصل بين روح الحجر وروحه ، وانتفض نقضة كتمت نفسه ،
فامتقع وجهه ، وبرزت عروق رقبته ... ولكنها ماتت في جسده ،
والحجر لم يتقلقل ، وجاسر منكىء لا يتنازل عن محاولته .

لم يطل الصمت ، قطعه صوت من بين شفتين كله احتقار
واستهزاء ، عدل بالأنظار جميعها عن جاسر إلى متولى : شاب واقف
في المؤخرة صغير الرأس ، أعتق ، أذناه لاصقتان على طرفي قفاه .. وأردف :
- « إذا كانت حميدة هي التي أخذت قوتك ، احسن تسبب
الحجر لراجل .. دا ثقيل عليك .. »

أظهر التحقيق أن للقتيل علاقة بحميدة ، ولكن لم يثبت إن كان
جاسر على علم بها . واختلف الشهود ، لا يدرون هل كان القادم في

يد بجاسر ، أم نخطفه من أحد الواقفين ؟ أخذ متولى الضربة وارتمى على الأرض ، له حشريحة سريعة متكررة يوقفها حيناً بعد آخر ، صوت حلق يابس يشرب ماء متدفقاً ، هو سيل الدم يتزف على ستر من مخه إلى جوفه .

ولكن وحشية هذه الحادثة لم تقو على خمس عشرة سنة تفل أصلب الذكريات . وأخذ الشقراوية ، عندما نفدتها مسهم يحيطون بجاسر يهتونه . فللفلاح مبادرة من قلبه لاثنين : حاج يعود ، أو مسجون يطلق . سلسلة من مظالم لا يعلم أولها . هي التي لا تبخس قيمة الطليق عندما يعود .

وفوق ذلك . فإن منظر جاسر يدعو إلى أن ترق له قلوب بلدياته . لم يميزه الدين يعرفونه منهم إلا بصعوبة فقد تركهم شاب حليق قوى الذراعين ، وإن كان محنى الظهر قليلاً ، يمشى بهد الأرض . وأمامهم رجل في ذقن قد عفرها الشيب ، هزل وجهه ، فعرضت عظمتا خده عن عينيه . ربما تكون قامته قد اعتدلت ولكن كتفيه تقوستا .. مشيته على الأرض زحف كأنه يسحب معه ثقلاً .

وسار الموكب بأناشيدة ، وجاسر في المقدمة . قد ولدت له الابتسامة ، فإذا هي ضحكة عريضة تبين عن أسنان غليظة . وجهه يتهلل عن بشر صادق . في نظراته لذه تمتع ورضا لا ترى إلا في عيني طفل .

على أن أحداً من المحيطين به لم يفهمه . ليست ضحكته من عودة حريته وحذب بلدياته عليه ، بل المفارقة تملأه سروراً ها هو —

من غير أن يحتسب - يعود لبلده في زفة ! لم ينلها أحد من المسجونين
الذين سارعوا بالتفرق عنه وتركوه . يذكروهم في سره ويضحك .
فأكل طبخته ، خير فكاكة لمن تنزل عليه المائدة !

وجاسر ذكي ، مهما قالوا عن قساوة قلبه زمن حادثته وعن
وحشيته في طرة ، يصبح في مثل هذه المواقف حيواناً كامل الإنسانية
يرق قلبه ، وتفتح نفسه ، ويقبل على الضحكة بشغف ، ولو وجدته في
أضيق المواقف .

جىء من الجلسة بعد سماعه الحكم وأودع عربة السجن وجد بجانبه
شاباً صغير الجسم مسود الأصابع . ربما كان جزعياً أو طباعاً . سأله
الشاب :

« طلعت بكام .

خمستاشر سنة .. أشغال شاقة .

في طرة ؟

في طرة ولا أبو زعبل .. زى بعضه ..

ح تنحت الحجارة في الجبل طول النهار ؟ ياخبر أبيض الله يكون
في هونك .. »

أدار الحجار وجهه للشاب ، فإذا عليه نفس التهلل والرضا واللذة
التي تنطق بها عيناه وضحكته الآن وهو يسير في رأس الموكب .
الضحكة واحدة رغم بقائه خمس عشرة سنة سجيناً . قد تكون
لعبت بجسمه ما شاءت ولكنها ، لم تمس روحه . وها هو يعود كما

كان ، شاباً نفسه متفتحة للحياة ، ولا يدرى أحد الآن بعد هذا الغياب ما مقدار جوعها رغم هزاله ، وما بين قدميه والأرض من فضال .

ودخل الموكب البلد ، ووصل الخبر إلى إسماعيل ، فجاء بلذاعه يجرى إلى ابن عمته . شاب مصفر الوجه متردد متلعثم ، أربكه وصول جاسر . وقفت زوجته تنادى الخبر أن تشعل منهم نبتاً ، (١) وأخذ هو يجرى هنا وهناك ، حتى استلف ثمن رأس سكر ، وخرج يستق الشربات للخبر أن وقد تجمعوا عليه يهتونه هو .. في سره يقول :

— « أهى مصيبه ونزلت على » .

وهبط الغروب على البلد ، وأخذ كل يعود لداره بدوابه وأغلقت الأبواب ، وهدت أجسام أضناها الشقاء ، ونعت جفون . ولما هدأت الضجة ، سمع في قلب البلد نواح ضعيف ونهبة .. هي أم متولى : جاءها خبر عودة جاسر فجدد مناحها .

ثغرة في جدار الحوش السماوى تصل منزل إسماعيل بوجه مسورة كان أبوه يخزن فيها حطبه ويربط جاموسه . ولما أكل الابن ماله ، بقيت مهجورة تجرى فيها الكتاكيت . لها باب من خشب الصناديق يفتح على أرض نخيل مهملة .

في ركن منها مسقف بالحرير ، نزل جاسر مؤقتاً حتى يجد عملاً ومسكناً . وفي البلد عرف ، لا يقر منزلاً يجمع رجلين وامرأة ..

(١) القاص : استوائي كبير .

فجاء إسماعيل بحزمة من البوص في قامة الرجل وسد بها الثغرة وحلوق
الخيران . ليس لهم بعد ذلك ما يشكون منه . ولكن في قلب إسماعيل
يقيناً بأنها « مصيبة ونزلت عليه » . ماذا تفعل في جاسر حزمة البوص ؟
هو منذ الصغر يتحاشاه ويتهرب منه . طبيعتها خبيثة . مال جاسر
إلى الخمر ، وحمد إسماعيل إلى الأفيون وحسن كيف (١) نخشونه الأول
جرت منه الصغر إلى المحجر ، وأتلف الثاني ما تركه له أبوه وهاجر
من البلد . رأى جاسر في إسماعيل أنه صييط خام . ويشكو إسماعيل لكل
من يعرفه عن شقاوة ابن عمته وأذيتة لخاق الله ..

ولو كان متزوجاً من غير نرجس لكان عليه الأمر . فهي امرأة
(محرّولة) يعلم الكل عنها أنها (نثاية) ، أكثر فهماً لطرق الإغواء
للرجل من فتيات البلد . يقولون أنها سبب فقره ، لأنه يجرى وراء
ذيلها ، ثم يحصلونه في الوقت نفسه عليها . في ضميره وسواس
دائم أن هذا الحسد يخفى تحته نوعاً من الاحتقار ، كأنهم يستكثرونها
عليه . إيمانهم بأنه تحت قدمها ، هو الذي يقلل من الإشاعات التي
تصل إلى أذنيه عما تفعله ، من وراءه . وهو الآن لا يستطيع الثقة
بإخلاص زوجته ولا بعفاؤها ولكنه يعيش كما يعيش زوج كل
امرأة خليعة . إذا كان يهاها : تأجيل مستمر لليقين ، واستساقعة دائمة
للبقاء على الشك .

وزاد من هموم إسماعيل أن جاسر يهبط عليه في وقت توقيع المحجز

(١) نوع من التبغ المخلوط بالسسل يسمى في الجزيرة .

(على بياضه) (١) وغرقه في الدين لرقبته ، وحرصه على ربيع
ذرة ، يقيان مع المش والبصل أوده .

ظل جاسر في أول الأمر بعيداً عن التفكير فيما وراء حزمة البوص ،
فقد اتخلمن ركنه منامة لا بأوى إليها إلا مع الليل في أول أيامه أخذ
يتجول في البلد والغيطان ، وزار متغلوط مرات متوالية . ثم ترك
ذلك كله و (تزين) على دكان خليل ، حيث وجد من العجائز وبعض
ضيق الشباب أصدقاء يتناوبون شرب أقداح شاي معكرة كالخبر .

في هذه القهوة سمع عن نحية إسماعيل في زواجه من هذه البعراوية
هو رجل « هايف » لا يعلم من ملاعيب زوجته شيئا ولا هم يعلمون
ولكن ليست على عيونهم مثل حينه غشاوة . ماذا تفعل في البنس يوم
السوق ؟ إنها تزوغ من وسط بلدياتها وتختفي من أول النهار لآخره .

أخذ جاسر — وقد ملأت هذه الأحاديث أذنيه — يسارق نرجس
النظر . لها مرات قليلة تروح وتغدو في دارها . ثم رآها تسير يوم
السوق وقد شلت طرف طرحتها على نصف وجهها ، ولكن العين
الوحيدة التي وقع نظره عليها كبيرة واسعة . متلفتة ، تهوب ما حولها
في لحظة ، وتفهم التيارات الموجهة إليها في غمضة .

وتربص جاسر إلى أن وافقه يوم خرج فيه إسماعيل مبكراً إلى
الغيظ . ودخل الدار فوجد لها بجانب الفرن . شفته السفلى متضخمة قد
تدلت ، وعيناه جشعتان :

(١) الزرع في الحقول قبل جبه .

— « صبحت بالخير يا نرجس .

— صبحك الله بالخير .. ابن عمك نويه طالع للغيط » .

الحوش « ماوى يكشفه الخيران . فأتجهت نرجس إلى غرفة صغيرة منحذرة ودخلتها ، فجاء جاسر ووقف على بابها . لم ير في مبدأ الأمر شيئاً ، ثم اتضح له بعد وقت حبل عليه ملابس نسائية عديدة كلها في ألوان مبهرجة ، تزئنها دنتلا وشرائط وتطريز وزركشة .

وقفت نرجس تنظر إليه . هو موقف مناجزة وقياس قوة بقوة . فهي أبعد ما تكون عن القروية الرعيدة التي لا تخلو مع رجل إلا وملأت رأسها فكرة واحدة : أنها عرضة لهجومه ، وأن الانتصار عليها لا يتوقف على إرادتها ، بل على الظروف . فلو كانت ملائمة له نعيم عليها جو من التسليم والعجز ، وقد تناضل قليلا ولكنها تنهى دائماً بالخضوع ، وأغلب الأمر أنها تنسى نفسها وتشارك في النهاية فيما أكرهت عليه . فهي تعيش طول عمرها ونظرها لنفسها أنها مطلقاً شهوة ، لا يربطها بالرجل إلا قانون واحد : أن تحرك — من بعد — من شهوته دائماً بحيث لا تخبر لها نار . لا تقدم ، ولكن إذا رغب ، عليها أن تعطى . وكان وجه جاسر أذكر اللون ، يفيض من عينيه نخبث غير جبان .

— « يعنى خبت يا نرجس في السوق السبت اللي فات ! ! »

لم يكن استفهاماً ، بل لهجة انتصار تحتها تهديد ..

— « عبال ما بعت الفروج .. »

وأقبلت مرتبكة على ملابسها تطويها فهي تعلم أن تطلع جاسر
لهذه الأثواب سيور عليها ، على أن أحداً من أهل البلد لم ير هذه الملابس .
حتى ولا أحب جيرانها إليها

وضحك جاسر بهلوه وكأنه يهمس لنفسه

— والله إسماعيل منى ١١١ —

وجلست نرجس تصف الملابس في صندوق أحمر . . هي
ثروة لامرأة لا تبدو في الطرق ، ولا يراها الناس إلا في جلاب
أسود يهبط إلى قدميها ، أبيض الدليل يكنس التراب ، فرجس تموت
على ثوب جديد ، لا تفرط في جلالية مها قدمت أغلب هذه الملابس
من أيام زواجها في بلدها (عوش)

نزل إسماعيل بهذا البلد بعد أن ترك السلطة (١) ، يعمل لدى أحد
المقاولين ووصله عن نرجس — وكانت إحدى جيرانه — أخبار
نحلاتها ، وطمع أن يتزوج من بحراوية مثلها فهو بعد تجواله في
مصر والشام لا يقنع بامرأة من بلده في هذا الوقت جاءه تعويض
السلطة ، وأخذ يصرف إيجاره وراء إيجاره حتى استلقت نظرها .
فتحايلت على زوجها إلى أن طلقها واندلقت على إسماعيل وقد بهرت
ثروته . تزوجته ، ولم تلبث يدها أن تفضت جيوبه في شراء ملابس من
كل صنف ولون وانتهى العمل و نقد التعويض ، فعاد إسماعيل لبنى

(١) لفظ كان يطلق على الإدارة العسكرية البريطانية التي كانت تصيد

الغلابين لتجهدهم في فيلق المال في الحرب العالمية الأولى .

شقيبر يرتزى من إيجار فدانين ، يعيش عيشة فلاح لا يعرف النقود
إلا وقت المحصول

في أول الأمر لم تنقطع شكاية البحراوية من غربتها وعدم قدرتها
تحمل الفاقة التي وجلت نفسها فيها فاسترضاهما إسماعيل جهده ،
وحرم نفسه من كل شيء ليجد ما تشتري به « الكستور » و « البرنس
عزير » (١) وجاءت سنوات خاسرة ردت إسماعيل فلاحاً لا يجد
سوى جلبابه الأزرق يعيش صدره ويرقع ظهره مرات . وعاشت
زوجته بصندوقها ، لا تتنازل عن مطعمها أن يزيد ويغتنى . توهمه
أنها تشتري بعض ما يراه من ثمن ما تبيعه من بيض دجاج تربيته

والحقيقة ، وهي البحراوية المخربة ، كانت لأجل هذا الصندوق
تفرط في نفسها بمنفلوط يوم السوق لأحد مشايخ الخضر . وتوصلت
على يديه ، وارتقت إلى معرفة بعض شباب الموظفين ولأجلهم كانت
إذا خرجت ندس في قعر قفها - تحت البيض وربطة الكتاكيت الجلباب
الذي يروقها بعضهم يقنع به وبعضهم تدفعه الحاجة للمرأة ،
ويألف من ثيابها وقدميها . فيحميها ويلبسها من ملابس الرجال .

وأتقنت البحراوية دورها ، فهي تباعد ما بين جريمتها وبلدها ،
وتتصل بوسط ليس من الفلاحين . ولكن الفحش لا ينكفئ عليه
ماجور ، وفاحت رائحة سيرتها ووصلت في بلدتها إلى أنوف نخلت
تلشم الخو .

(١) نوع من الأقمشة النسائية الشعبية .

وخرجت نرجس من الغرفة ، فأمسك جاسر بيدها وأراد أن يدفعها بجسمه ويدخلها الغرفة ، ولكنها انفلتت منه وكرت إلى القرن فتبعها جاسر ومال عليها يقول :
« حرام عليك .. أنا بقي لخمسناش سنة .. »

واستند على الجدار ، وشعر بشيء يجذبه للأرض ، تنفسه سريع وعيناه مشتعلتان . استيقظ فيه وحش طال وقاده ، فلما هم يقوم لم تسعفه قوائمه . هو هائج تجمعت قوته فجأة ، ولكن لا يزال في (دوخة) اليقظة .

وجلس جاسر القرفصاء .. وجسمه كله يرتعش .. ثم مالت رأسه وضمها بين ركبتيه بيدين متصلتين .. وتملكته هزة متكررة . نوبة تشنج صرخته ..

أسرعت نرجس للزير ، يلاحقها من جاسر شخير يلمسها في أذنها ويتسرب إلى أعصابها . وعادت إليه تهم بصيب الماء على وجهه .. ولكنها عدلت .. لا يزال هذا الشخير يأسرهما لا يعلم أحد ما الذي أثار في ذهنها .. لعلها ذكريات حوادث قديمة .. كانت فيها عبدة قن (١) لحسمها .. في أول شبابه كانت تسكر في بعض الأحيان من عرق البلح وتنسى نفسها . وعند اليقظة تحس بأثر مجهود صوتي في حلقها ..

ألقت الماء على وجهة فشقي .. ورفع رأسه ، فاذا ببصره يقع على عيدين كلهما خضوع واستسلام . ربما سحرها ما رآته من القوة

(١) العبد إذا ملك هو وإبواه يستوى ليه الاثنين والجمع والمؤنث .

تتفجر وتصرع رجلا. وربما كان ما، أنه في حالة جاسر من رغبة صادقة ملحة .. من أجلها هي .. ولكن لا هذا ولا ذلك إن هو إلا قدر محتوم يهبط على التلالق ، في حواشيه حوادث تسمى مرة مصائدات ومرة موجبات ، وما هي إلا نغمة من نغمات الكون في دوراته .. ليس للإنسان فيها إلا ما للثقب في صفيح الناي .

وقام إليها ، وماتت يده على معصمها . جرها معه . لا يزال يحني الظهر ، خطواته سريعة ، وأغرب شيء فيها أنها قصيرة ، شيء يحني بشد قدميه الواحدة إلى الأخرى ..
وسترهما ظلام الغرفة .

...

تغيرت حياة جاسر . هو منذ عام ينام إلى الضحى . ويقضي صحابة النهار بدكان تخطيط . لم يزد أبو فودة . فغياهب السجن قطعت فيه عرقاً يربط الرجل بمنقبته . وهو — بعد هذا السجن الطويل — عن العمل عزوف . يود لو تظل حياته كلها حرة .

لكن نرجس أشعلته ، رده فربها إلى ماضيها ، وأزال عنه نقابة السجن . وإذا به في اليوم التالي لا اجتماعها يخرج من مسكنه مع الفجر ويترك البلد عن يساره ، ويجد في سيره كأنه في يوم من أيام شبابه .. يسرع كمعادته كل صباح ليلحق المعبدية . خمس عشرة سنة مرت كحتم ليلة ١١ الهوة التي فغرت فاما في حياته لم تقو على زمن له من القفز ما يصل بين ضفتي أوسع الشغرات .

ليس في الطريق مزارع ، وكل ما حوله أرض فضاء رملية
تغوص فيها قدماء الثقيلتان ، ويجاهد بهما — وهو مسرع — يساعدهما
بحركة من كتفيه ...

بعد برهة وقف ذاهلا ... لم يبق بينه وبين النيل سوى خطوات
قليلة ، مع أنه يذكر أنه كان يصل للنيل بعد سير طويل .

وقت شبابه كانت الموردة (١) تقرب من البلد أو تبعد عنها بمسافات
لم يلاحظها جاسر ، لا لأنه ليس فلاحاً تهمة القصبة والشبر ، بل لطول
مجاورته للنيل وتعوده على تصارييف هذا المخلوق العجيب ، كحارس
الأسد : يسمع أنخفت همس المتفرجين عن البقشيش ، ولا تحس
أذناه شيئاً إذا زأر الوحش من على كتفه ..

ولكنه في هذا اليوم لم يتمالك نفسه من الاندهاش . زالت
سطوة العادة وتحجر الفكرة أمام قوة النيل . في خمس عشرة سنة
أكل من بنى شقير مسافة رحبية ، كان جاسر يمشيها في أكثر
من نصف ساعة .

وأشرف على الموردة والشمس لما تشرق . على بعد « كوشة »
جبر تحرق ويظللها الدخان .. أمامه قلوغ بعض المراكب يسمع ضوضاء
لخالسين فيها .. ووقف جاسر على مرتفع من الجسر . للريح صفير ،
والنيل تحته دمدمة خفيفة .. هو في عز فيضانه ، يطل عليه كالشبح
ناشيء من طينه . الطبيعة سواء في الاثنين ، ليست الشهوة قاصرة على
الحى .. كلاهما يزرح تحت عبء فورة واحدة ...

(١) ميناء القرية على النهر

فليس أدل على الشهوة من النيل وقت الفيضان . هو طول العام
طفل نحيل تحمله مصر حرصاً على اليدين ، شفتاها على شفثيه ،
من رحيق فمه تعيش . ينتهى العام وثدى مصر قد جف . فيه هيب كله
نداء للارتواء . والطبيعة انقلابات لا مقياس لقوتها ، فلا يأتى
الميعاد حتى تنفض مصر . تحس الرشقة تنقلب قبله حارة تنفجر بها
شهوات حبشية تتجمع طول السنة . ويقفز الطفل من بين يديها فإذا
هو عملاق يده تشد شعرها . ويده تنهر خصرها . ثم يطويها تحته
فتغيب . كساقه لها من ماء طحينى ، له فى وسط الوادى هدير ،
وعلى شفثيه رفرقة . ويرتوى فى جوف مصر كل شق ، وتحيا كل
حين ، ويفور من البلاليص ماؤها العفن المدود .

لا ترى قوة النيل فى الدلتا .. هو لا يجهد حريره إلا مع الفيضان ،
فإذا تخطاها وراء القناطر شعر باللجام فى فمه .. الجسور مجانيه الغمامة
تحيط بعينى الفرس ، يركبه كل بلد شوطاً ويسلمه لمن بعده ..
يقرب من البحر وهو شيخ مرت عليه آلاف السنين ، يجرى شوطاً
واحداً لا يتغير حتى هد الملل والتعب قواه . تنازل عن نضاله
مع الأرض ، فى مجراه المرسوم يجرى ، هو الذى طالما تقوى وشق ،
أو تحايل ولف ، يخلق الجزائر ، ويبلغ البحيرات ، تملأ حلقه سدود
من كثيف النبات فلا ينقص ، وتخذعه مستنقعات فى التيه نهايتها
فلا يفضل ..

كل هذا كذب .. في الصعيد يثبت النيل أنه رغم كل هذا لا يزال
شاباً مفتوناً بنفسه وبقوته .. ليست آلاف اللوامات إلا من دمه الفائز .
له في كل موردة يد تغازل الفتيات . بين كل حين وآخر تقتنص
فريسة لا تشبع لها نهما .. للشواطئ منه عبث الجبار .. وها هو
مع بنى شقير ، في سنة يمنحها أرضاً خصبة ، وفي سنة يسترد هديته
ومعها أجرها مضاعفاً .. في خمس عشرة سنة أغار على أرضها
بأكل منها كالمفجوع حتى اقتربت الموردة من البلد للدرجة التي
أذهلت جاسر .

ولفح وجهه ريح رطيب ، فامتألت رثاه وزاد تنفسه عمقا ،
وفصل جسمه عن بهمة الليل بصيص من الضوء الأحمر يبرز من وراء
الحبل ، رمى له على الأرض ظلا طويلا ، وعلت قامته ، ووقف
لحظة يحدق في أبو فودة . ثم هبط حيث المراكب .

في طريقه إلى المعدية ألقى جاسر السلام على رجلين جالسين على
الأرض ، ولما تبين أن أحدهما هو شعلان صاحي أحد مستأجري محاجر
الحكومة ، كر راجعا وجلس أمامهما ..

— يا عم شعلان ، أنا عاوز أرجع للشغل ، خليني وياك .
أنت أحسن من غيرك وطيب .

— أمال انت معدي لمن ؟

— أنا خارج لسه على باب الله .. والحمد لله اللي قابلتك .

— طيب روح النهاردة اشتغل في نمرة ٦ . ولما تشوف شغلتي

الحساب يجمع . أنت ما معكش عدة ؟ أنا عارف . قولهم هناك ينوك
العدة اللي سابها الواد على . »

وقام حاسر يلحق المعدية قالتفت شعلان لزميله يقول . :

— « دا حجار كويس ويعرف الشغل .

— مين ده ؟

— آه .. أنت صحيح ما تعرفوش . »

وبدا شعلان يقص قصة حاسر . استمع لها عبد المسيح بهلوه ،
لا يلفظ بحرف ولما انتهى أقبل على حجر صغير في الأرض وأخذ
يلعب به .

عبد المسيح — خفيّر الحجر النظامي

عبد المسيح — خفيّر الحجر النظامي — هو صاحب الطربوش
الوحيد في الجبل ، يرى فيه كالغريب الضال . جاء لوظيفته بعد
أن ترك خدمة الجيش توأ . لم ير محجر طوال حياته ، ولم يعاشر
حجاراً من قبل ، ورغم ذلك — ورغم أنه غريب عن البلد ، وديانته
تخالف أغلبية سكان الجبل — فإنه استطاع بعد وقت وجيز أن يفهم أسرار
الحجر ، وأنواع الحجر ، ودقائق العمل ، وأشخاص " الحجارة " ،
الخصوص منهم والأشراف ، بل عرف كيف يكسب صاحب كل
محجر ، وكم يبلغ ربحه . يأتيهم مع الصباح المبكر في يده البندقية ،
يجول هنا وهناك فيفهم السرقات التي جرت في غيابه من محاجر
الحكومة . لم يشتك للمركز مرة واحدة بل ممكن أن يصل إلى غرضه

يضرب رجلاً برجل ، ومصلحة بمصلحة ، فقلت حوادث السرقات
وهذا الجبل عن ذي قبل . وربطه مع العمال صداقة ، هي من جانبهم
مشوبة باحترام لا يمنحونه الا لمن يعلمون أن نفسه لا تقل عن نفوسهم
صلاية .. وقال شعلان :

« ما حبش لما تسهم .. قلت كام مرة قول اللى فى فكرك
ولا تحبش .

« أخبى على إيه ؟ أنت غلطت .. الراجل ده ما حدش يفلح ،
رح يتعبك فى الشغل . خمستاشر سنة سجن ! مين عارف ح يعلم
الحجارة إيه من اللى اتعلمه هناك .

— انت عارف (الرى) مستعجلنى ، وتو ما لفته ...
تركه زميله وقام .. الحديث لم يعجبه .

...

تحايلت نرجس على التهرب من جاسر ، فهي تخشى
افتضاحها فى البلد ، ونحسراتها أقوى سائر لها : زوجاً غافلاً . على أن
يوم السوق ثغرة فى تحصنها لا تستطيع سدها . فمغامرات كل
تاجرة تنتهى حتماً إلى عادة صلبة تدخل برنامج حياتها ، فتؤديها بلا
تفكير كأكلها وشربها .

فى منفلوط ، سوقاً بعد سوق لاحقها جاسر وهو هائج مغيظ .
فليس أكثر تمزيقاً للقلب وبعثاً للغيرة من عشق امرأة تصد فى حين
أنها مبلولة للكثير . وزاده تعلقاً بها أن ذهنه ، فى فورته الفجائية .

وجد من هذه المرأة وعوده قواه ، شعوراً لا يقدم أحد شقيه إلا مع
الآخر ، وأصبح كابلحاموسة العتيدة يكاد يضرها اللبن في ضرعها
ولا تدرب به إلا لحالب معين .

وجدنا أمام بائع يعصر على صلبه يدها ليلبسها « خواثش »
زجاجية ضخمة مبرقشة ، فجاء إلى جانبها ودفع لها الثمن ، فلم تمنع .
« إذا كان نفسك في حاجة قوليلي .. ربنا محزن على دله قى ،
وأشيتي معلن .

— يا جاسر سيني في حالي ما تخربش على ..
— انت اللي ما تخربيش على .. أخرتها أنا اللي ح ! أضيع
عمرى عليك .. شوفي .. لو تكوني إنت مين ، ومها عملت ،
أنا مش ح أسيلك . فهمتي ؟ »

ظهرت الحيرة على وجهها ، فهي بعد تفریطها الأول بين أن
تداوم أو تقاوم تخشى لسان جاسر ، وهو يعلم سرها ، أن يجرى
باسمها في أنحاء البلد . كل خوفها أن تشهر سيرتها ، ولم تفكر لحظة
في زوجها . فاهتمامها بإسماعيل محي منذ أن ضاعت منه الإجارة (١) ،
وأصبح أجرياً بالطورية ، (٢) يقضى أكثر الأيام عاطلاً ، لا شغل له
سوى النوم فوق الفرن . يوم وراء يوم وهو في خمول لا يسأل إلا
عن أكله . لا ينقصه إلا أن يتكلم ويقول إنه فاهم . وموافق .
مادامت من وراء سعيها ستنتفي عليه .

(١) سلة في استنجار أرض كان يزورها .

(٢) اسم الناس في الصعيد .

ومتى هبط الزوج إلى هذه الدركة ، أصبح إصبعاً يشير لا درعاً
يسر ، ولكنه - على الأقل - ينفع الآن حجة تهرب بها .

- « أنت عارف إسماعيل بارك في البيت .

- إسماعيل مين ذا اللي مالى عينك ؟ قولى لى إنتى الى مش عاوزة »
هل تقطع المحيط وتواجه الفضيحة ؟ لم يكن مقصدها إلا أن
تطوح بجاسر :

- « أهو شغلك شغله فيه » .

ثم افترقا . . ولم تخط خطوتين حتى أشرق عليها إدراك غريب ،
كانت قلقة لسان ، ولكن هل فهمها بمعنى آخر ؟ وتملكها اضطراب
شديد لم تعهده من قبل ، وبدأت خطواتها تسرع على خفلة منها .

فليفر الإثنين معاً .. وماذا يهمها .. لفت رأسها فجأة روح
من عدم المبالاة و « ضرب الدنيا طبنجة » ، هى امرأة تتاجر بعرضها
وجدت نفسها فى ركن .

ولكن البعراوية غير سهلة .. وليس كل تفكيرها سليماً ..
ففى بعض الأحيان تقوم بنفسها نزعات من الشر لم تتح لها الظروف
أن تتعرف مداها .. وكأنها غاظها أن يلعب بها ولا تساهم ، فإذا
بها تكرر راجعة تبحث عن جاسر ، لحقته فى الطريق ولمست كتفه .

- « إذا كان كده .. أحسن تعزل من المنامة اللي جلدانا ..

شوفلك حنة غيرها .

وتلاقى النظران ثم ولت مسرعة

وسار جاسر بتمهل في خطواته . كان غير واثق من فهمه ، فإذا به له
اللمحة السريعة تبدد شكوكه .. وجعلته يدرك ، لا الذى تقصد
ترجس بابتعاده عن جبرتها ، بل أنارت له طريقة واضحة يسهل عليه
بعد ذلك الوصول لنهايته .. القروية هي المدبرة ، وخريج السجون تبع !
وكان في حاجة إلى التفكير في هدوء . فأخذ طريقه إلى قهوة
يعرفها في نقطة المومسات .. وعلى دكة خشبية جلس ، تفوح في
الجو رائحة تخمر شديد من بوظة (١) مجاورة ، وتصل إليه نغبات رقص
على مزمار وطبلة ، وأمامه عدة نسوة يفرشن الأرض تحت ظل
شجرة على حافة الحसर ..

ولكن جاسر ليس هناك .. ترك إسماعيل وأخذ يفكر في ترجس
عندما يحولها لن تجد فيه زوجاً « نعمة » كإسماعيل . في أول
لياليه سيسويها بضرب موجه ، لتفهم أنه من عبدة أخرى لا تحمل
اللعب على اللقون .. سيحبسها في الدار ويقفل عليها بالمفتاح ..
وشدت يده بغضب على جوزة التماك .. وتكررت نفخاته ،
يجابها الماء بكركرته ، وغطاب في تفكير .. على يديه دم رجل ،
ولكنه لم يقتله إلا في لحظة غضب دون أن يعي لنفسه . أما الآن ،
بعد خمس عشرة سنة في السجن ، فهو قادر على أن يصنع المصيدة
ويستهوئ فريسته إليها .. ولكن مشروعه يحتاج للصبر . سيروض

(١) مكان غرب الوجهة ، ومن حين ممر مسكر .

نفسه عليه . قصة يذكرها الآن لأحد زملائه في طرة .. قتل له ابن في ريمان شبابه في جمعة طلبه للجهادية ، ولم يكن لغريمه ذكر يثار منه سوى صبي يلعب ، فصبر عليه ، إلى أن جاء ميعاد فرزه ، فرماه بالرصاص .

هذا هو الصبر .

...

وأثبتت الأيام أن عبد المسيح على حق . فالحيوية التي استيقظت في جاسر جعلته لا يستطيع الصبر على معيشة الحجارة ، ينكئ على عمل واحد من الفجر إلى المغرب . وعلى مهل بدأ يقلل من عمله ، ويتدخل أكثر فأكثر في إدارة المحجر . يوماً يفرق بين عاملين ملتحمين ، ويوماً يحمر عينه لمراكبي يعاكسهم في الشحن . ولسابقة خبرته في المحجر ، وفي طرة ، لم تحب له نصيحة واحدة . ولم يمض زمن طويل حتى أصبح من جديد ، رغم غيابه ، مرجع العمال جميعاً ، يحترمون وينصتون لرأيه .

وأنحفض شعلان عن هذه الحركات عينه . هو جرم المشاغل ، كثير التغيب عن المحجر ، ووجود رجل مثل جاسر يوفر عليه وقتاً يضيع في سياسة منازعات عديدة عقدتها لانتحل إلا إذا جاء ورأى وحكم . وانتهى الأمر بجاسر إلى أن أصبح رئيساً للمحجر نمرة ٦ .

في ليلة جلس جاسر في دكان خليل يتحدث بصوت مرتفع ويضاحك الجلاس ، ويطلب لهم على حسابه دوراً من الشاي .. ولما جاءت الأكواب التفت إليهم يقول :

— يا ولاد باركولى .. الهاردة قرية الفاتحة فى الجبل مع
حسين رمضان يجهزنى بنته ، حكاية زى الحلوته .. أعمل إيه ؟ عاوز
أجوز من يوم ما رجعت . رزقى دلوقتى متسع والحمد لله .. ومن يوم
ما (عزلت) عن ابن خالى إسماعيل لقبلى البلد ، وأنا مش متبني
ع اللقمة ، عاوز لى مرة نخدمنى ..

ولما ترك القهوة دار حديث الموجددين عنه .. كيف صار الآن
فى نعمة بيعتر لقوده ، ويشترى قدر عزق البلع ، ويجهز عليه فى
يومين . .

— والله يقوم بجميل إسماعيل الأول .. الراجل شوية شوية
ح يسف التراب ، وأولى بقرش من قريه ..

— عشان تصرفه البحر اوية على كحلها ؟

— إزاي ؟ أنا سمعت أنه خده وياه للجبل وشاف له شغل هناك ..

— حقيقى .. امبارح شايفهم الاثنين معدين سوا ..

— إسماعيل من ساعة ما سافر للسلطة وساب طينه ، ما عدىش
يفلح . .

— صحيح . . هو يعرف إيه فى شغل الحجر . .

وهذا ما قاله إسماعيل من قبل ، ولكن جاسر طمأنه وأفهمه انه
لن يعمل إلا فى نقل بعض الأحجار من حاالة الماء للمركب . بين
لاثنين خطوات ، سيكون معه يساعده ، ثلاثة قروش يوميه ..

وإسماعيل — على رأى بلدياته — فلاح نحائب ، لا تربطه بالأرض
ما يربط باقي الفلاحين ، يموتون ولا يفارقونها ، وساقه الجوع إلى
الجبل مرعماً وراءه تحريض نرجس . .

— « ليه ما تروحش . . انت مش راجل زى الرجالة ؟ »

سار إسماعيل إلى الموردة ونزل في المعدية كسير القلب ، أمامه
على الضفة الأخرى محجر أبو فودة غير واضح ، فلا تزال الشمس وراءه
ولكن بعض الأصوات يلقفها الهواء متفرقة من الجبل إلى أذنيه . .
كلها وقع الحديد على الحجر . . ولم تتوسط المعدية النيل حتى استعاذ
المراكبي من الريح . وطلب من الله المعونة لأصحاب المراكب الذين
سيسوقهم سوء الحظ للمرور في هذا اليوم . .

لا يجهل مراكبي واحد يحب الصعيد اسم أبو فودة . . إذا
دنا منه توترت أعصابه وزاد صراخه ، وهم إلى قلوعه يربطها . .
فإذا جاوزه حمد الله وجلس يغنى إن كان شاباً ، أو يقضم من لقمة
و « يربش » بعينه في نور النهار ، إن كان شيخاً . . لا مأمناً لأبو
فودة ، تحس المراكب أمامه أن الجبل واقف لها بالمرصاد كالشيطان
ينفخ عليها ريحاً خبيثة تملأ القلوع وتميلها للقاء . . بعضهم يعلل السبب
بأن الهواء يضرب الجبل فيرتد في دوامة خفية تهبط على القلوع فتصرعها
بحراً . . ولكن المراكبية كلهم يعتقدون أن في أبو فودة شيئاً مرصوداً
من القدم يدفع بالمراكب لحنفها ، لاشأن للهواء أو الريح . فكم من
مركب قاربته وقلوعها ترفرف ، ليس في الجو نسمة ، فإذا جاءت .

تحت انتفخ القلع وترنح المركب من ضربة خفية ، وانقلب ظهرها فوق الماء . .

وجلس إسماعيل يستمع لهذه الأحاديث فتعلا قلبه سخطاً ، وحمل هم المعدية تنتظره كل يوم صباحاً ومساءً . ثم تجاوزت المعدية وسط النيل ، وبدأت الشمس تعلو رأس الجبل وتلقى أشعتها على سفحه المواجه للنيل ، فظهر الحجر أبيض ناصع اللون يرتد عنه الضوء في بهرة ووهج . . وتبين إسماعيل مصدر الأصوات التي وصلته وهو على الشاطئ . . كل الجبل مرشوق برجال معلقين على سفحه مربوطين من وسطهم بالحبال . في أيديهم حديد يضربون به الجبل ، ويرتد الصدى من كل النواحي ، بعضهم يغنى وهو يدق ، وبعضهم منهمك في عمله ، لا تتأخر ضربة عن ميعادها الموزون .

هي أول مرة يعدى فيها . كان يظن طول عمره أن الجبل بعيد عن الماء بمسافة ، ولكنه هذه المرة رأى كيف يلطم الماء الحجر لظماً . بعض الأحجار المتناثرة غرق في الماء لنصفها كيف ينبت من الماء مثل هذا الصخر قد يبدو كأن النيل راحع أمام أبو فودة يغسل له قلميه ولكن دمة التيار يضرب الحجر ، عداوة صريحة بين القوتين . . النزاع طويل . . منذ القدم ، فليس الجبل من طينة شواطئ الوادي . . عناصر من الطبيعة متكافئة ، ينسل من بينها مخلوق ضئيل . إذا وقف على سفح الجبل تبينت حقارته ، ولكنه الأقوى ، يركب ظهر أحد الخصمين ويعلو هامة الثاني بيده من الحديد والنار ما فت

في دروع الجبل . . يقطع من لحمه كل يوم ولا تمتلىء عينه حتى
أصبح الجبل كجاموسة الفلاح ، من طول جوعها ، بارزة العظام على
الجنبين ، بينها بطن مهضومة .

وفجأة دوى في الجو صوت مرتفع .

— وردة . . . وردة (١) . . .

تناثر شلة العمال الذين ينقلون الأحجار أمام الموردة وجرى
إسماعيل مرتبكاً وراءهم . وخطف بصره وسط السفح لحيب من نار
وسط دخان أسود ، يعقبه سحب أبيض . . وفي اللحظة عينها ملاً
أذنية دوى مكتوم هلع له قلبه ، وتدفت أكوام الحجر كالطر ،
تتخرج . . تتخرج . . الكبير منها يصل إلى الماء . والصغير قد يقف في
منتصف الطريق .

والتفت إسماعيل يسأل أحد الحجارة وهو يشير إلى حجر كبير
استقر على بعد من الموردة :

— « ودا ح تشيلوه إزاي

فأجابه العامل وهو يضحك .

— « ما تخافش . . دا ح نكسره باللغم كام حته . .

شعر من هذه الضحكة أنه سيعيش غريباً عن الجبل والعمال ،
كلهم قساة لا شهوة لهم في التحلث وقت الشغل ، وأغرب شيء فيهم
أنهم من مسحة واحدة لا يفارقها العثير (٢) . . أيديهم غليظة ،

(١) كلمة تحذير معرفة عن الكلمة الإيطالية الفرنجية بمعنى احرس وكانت

شائعة على السبلة الحوزية في الاسكندرية بنفس المعنى .

(٢) القوام .

ظهورهم محنية، هل تفرحوا جميعاً من أصل واحد؟ أم هو الجبل لا يستهوى إلا طرازاً خاصاً؟

واستمر إسماعيل في نقل الحجارة أياماً متعددة حتى ألف الجبل والعمال. واعتادت أذنه دوى اللغم وترجيع الصدى، وأصبح يفهم الألفاظ التي يتباد لها زملاؤه، ولكنه ظل رغم هذا في مرتبة الصبيان أجراً، لا يتعدى عمله نقل الحجارة من مكانه إلى مراكب الشحن.

في فترة من فترات سخطه، جاءه جاسر يفهمه أنه لو كان غيره مكانه لتشجع قليلاً وترك هذا العمل البسيط إلى ما هو أريح.. وأخذته إلى سفح الجبل وأراه علامة.. هنا يراد فتح ثقب للغم جديد.. ما عليه إلا أن يكون معه الملق - عود غليظ من الحديد رأسه مديبة، والمعلقة صيخ طويل في نهايته كف صغير لتنظيف الثقوب - ويدق في الحجر إلى أن يستحدث به ثقباً مستقيماً طوله نصف متر تقريباً.. ليس يطلب منه شيء أكثر من هذا.. وعلى جاسر بعد ذلك ملؤه بالبارود وكبسه وإطلاق النار فيه.

لم يفلح إسماعيل في أول الأمر في إحداث الثقب. وهدل به جاسر عن هذا الموضع إلى غيره، ولكنه - بعد أيام - سمار في عمله وأخذ يمر على الأمكنة التي يجد فيها العلامة ويشتغل.. هو إلى اليوم يعمل واقفاً على رجله.. بعد أيام وجد نفسه مضطراً لفتح ثقب في علامة تحت نتوء وسط سفح الجبل لا يستطيع الوصول إليه. وفهم لماذا يضطر العمال لربط أنفسهم في حبال تتدلى من صخور بارزة في أعلى الجبل..

ليهبطوا إلى أمكنة لا يتسنى لهم الصعود إليها. عن يسار الحجر بمسافة غير قصيرة ، طريق يؤدي إلى رأس الجبل . من هذا الطريق يصلون للصخور البارزة ، ويدلّى الحجار الجبل بعد عقد طرفه بأحد الصخور ثم يهبط عليه حتى يصل لعلامته ، فيربط حزاماً في وسطه بالجبل ويظل حر اليدين .

وتعلق إسماعيل بالجبل مراراً ، وجاسر يقود خطاه . . وأصبح لا يخشى موقفه بين السماء والثلج .

في النهار أبو فودة حركة وفرقة ودوى ، وفي الليل سكون وهواء يصفر . . في ليلة مظلمة في أوائل الشهر رأى أبو فودة جاسراً يعود إليه منفرداً في قارب صغير . . ثم يتحسس خطاه ويقفز من حجر إلى حجر يحاول أن يصل لرأس الجبل من الطريق المرسوم ، ولكن رجليه — دائماً رجلاه — عاجزتان وحركتهما بطيئة ، فهو يسند نفسه كل حين وآخر بيده ، ويقف ينصت . في لحظة خيل إليه أن الظلان حوله تتحرك إذا ضربها الهواء . . . وتمالك نفسه ، يسير مخنئ الظهر تنفسه مسموع . لقيه على رأس الجبل هواء بارد ، يهب على وجهه فلا يؤثر في الحمى التي تملك جسمه ، العرق يتصبب من جبينه ، ولسانه جاف ، ، ،

ووقف جاسر عند صخرة نائمة حولها جبل معقود ، ذيله الطويل يتدلّى إلى سفح الجبل يكاد يصل إلى الماء . . تلمس موضع العقدة وشرع يزحزح الجبل إلى أن جاءت أمامه . وأخذ يعمل فيها يديه . . ثم أسنانه حتى فكها . .

كل الحجارة يفهمون في الحبال وطرق عقدها . . وكان جاسر أيام شبابه — أمهر العمال في اصطناع العقد ، له عقدة يحدثها بين حبلين في غمضة ، ومع ذلك يكتفى أن يقع على طرفها ضغط يسير حتى تقوى وتصبح كوثاق الحديد . . ليس هذا كل ما يعرفه . . بل كان ماهراً أيضاً في اصطناع عقدة تظهر ملتوية ضخمة ، متداخلة ، لا يشك من يراها أنها تقاوم القناطير ، ثم يطلب من أحد الواقفين أن يجذب طرف الحبل على مهل ، فإذا بهاتفكك شيئاً فشيئاً ، وإذا بها أكبر الخدع .

أعاد جاسر لف الحبل على الصخرة ، وجلس يدين مرتعشتين يعقد الطرفين عقدة لن تدهش المتفرجين هذه المرة ، بل ستستند عليها روح معلقة بين السماء والماء ، وسط أكوام الحجارة التي لا تلبث إذا سقط عليها الجسم تلقفته بأسنانها ، تمزق أوصاله ، وتهشم رأسه فتاتاً . .

وعاد جاسر بقاربه وربطه حيث كان في مؤخرة مركب كبيرة عملة قللا وبلايص ، لحقها الليل أمام بنى شقير ، فركنت في الموردة ، وكان أهلها في نوم عميق . .

لم يغمض له جفن طول الليل . . جسمه يرتعش رعشه مكتومة . . الكلاب تعوى حوله ، وللديكه آذان كله نداء وتنبيه .

في الصباح ، بعد مياعده ، خرج من منزله لافاً رأسه ومعظم وجهه في لاسة من الصوف ، يقول لكل من يسأله — وهو في خطو

المشلول — إنه مريض . بين جنبيه هوة إذا أطلت عليها نفسه لم تر
إلا خوفاً ورعباً يحدقان فيها هو مريض ضعيف ولكنه قبل كل شيء
يريد من ربطة اللامسة أن يمتحن وجهه ويستر اصفراره واستقل المعديّة
معه عدد من الحجارة المتأخرين ، جلس بينهم متخاذلاً ذاهلاً عما حوله
المنظر التي تبصرها عياه تقع على مخ صدى ، فلا يفهم منها شيئاً ..

وبدا أبو فودة يتضح . كل يوم له ألف لسان من معول حديد يصلح به
الحجر ولكنه الآن أخرس واجم .. وزاد من تساؤل ركاب المعديّة أنهم
رأوا عند ما اقتربوا ، جمعاً من الحجارة يجرى من أعلى الجبل لأسفله .
بعضهم يحرك ذراعيه ، وبعضهم يصرخ كالقرويين جميعاً إذا أرادوا
إسماع صوتهم لبعيد ، في صرخة طويلة موجهة تنتهى بعويل .

وقفز الجمع فاندس بينهم جاسر .. تلقفهم العمال بالخير .. إسماعيل
جاء كمادته ، وطلع للجبل وهبط على الجبل ليبدأ عمله ، وفجأة — وبدون
سبب واضح — رأوه يهوى .. صرخ مرة واحدة ثم لم ينطق ... رقراق
من الدم يسيل من طرف الفم على خده عين مسودة ، حاجبها مجروح ،
وعين كبيرة جاحظة .. مر الرعب عليها وهو هارب فتلقفته منها يد
الموت .. فهو فيها أسير مقيم .. وارتمى جاسر على البلثة يحضنها ويبكى .
— « آه .. آه يا ابن نحالى » .

ونقلت البلثة — في المعديّة ! — إلى بنى شقير ، يألف النيل منذ
الفراغة ترجع الميت من أولاده على ظهره .. في الغرب المنازل ، وفي
الشرق القبور .. ونزهته الوداع !

فوصل إلى عبد المسيح خبر موت إسماعيل ، فأسرع إلى محل
الحادثة ، وكان الحبل لا يزال موجوداً فأخذه بين يديه يقلب فيه ..
يستمع للحديث حجار واقف وراءه .

— « هو لازم ما عرفش يعقد الحبل كويس .. ماتتباش بالحبل » .

فقام عبد المسيح ينصرف .. لم يلتفت للحجارة .. وكأنه يهمل
لنفسه لا يسمعه قوله :

— « له رب .. » .

ومرت أيام طويلة .. ورأى الشقراوية كيف يطلب جاسر من
حسين رمضان أن يحله من « فائمة » ابنته ، لأنه لا يجد مفرأ من أن
يتزوج من أرملة ابن خاله .. المصيبة مصيبتها .. هي بحراوية ..
فارقت بلدها وأهلها .. وليس لها عائل في بني شقير .

وضمهما منزل واحد .. في لدة يعرفها أكثر الناس
هي عندهم شيء يأتي ويذهب ، وهي في نرجس وجاسر عنصر مقيم ..
وارتوى جسمه على الغذاء الحديد .. في أول الأمر أصابه ضعف
شديد ، ثم انقلب إلى سمنه ، انخفضت معها عظمتا خده ، وانتفخ شلثاه
وظهر له كرش كبير .. وزاد إقباله على عرق البلح ، وكثر في
الحبل حديثه ، وبدأ العمال يتدمرون من محاولته ، في غير مناسبة ،
لأن يتدخل في مصالحهم والسيطرة عليهم ، وهو كسل لا يقوم بعمل .

. مر عليه شعلان ذات يوم وهو في الحجر ، وتعهد أمام العمال جميعا أن يؤنبه على بعض إهماله . . . وهدده بإخراجه من عمله إن لم يعتبر . . لم يجاوبه جاسر إلا بكلمات متقطعة . . ثم انتظر حتى اختفى الرجل وعاد إلى عمله . . هو جالس عند حافة المساء على حجر ضخم في وسطه ثقب عميق ، بجانبه كيس بارود يتناول منه بحذر ويسكبه في الثقب . . ثم ضحك :

— « يعني عم شعلان فاكّر رزقي في إيدّه ؟ يعجبه أسيب الشغل وأروح نكرة ؟ أم عاوزيني هناك . . »

وامتلاً الثقب إلى ثلثه . . فجاء جاسر بالقتيل وهو عصا من جريد مشبعة بمعجون البارود ، وركزه في الثقب وسط كوم البارود ، وتناول من تراب ناعم بجانبه حفنة وألقاها حول الفتيلة .

— « انت ياواد ياغلوان — دقيت الحجر ده كويس ؟ أوع يكون فيه حصوه ؟ » .

جاءه الجواب من عامل معلق .

— « كله كويس . . أهو قدامك شوفه » .

ومد جاسر يده يكبس التراب حول الفتيلة . . ثم ترك الشغل ووقف : —

— « بيتي يشوف عم شعلان لما أسيبه الشغل يمشي إزاي ؟ »
ووصل التراب إلى حافة الحجر ، فأخذ جاسر عموداً قصيراً من الحديد وبدأ يكبس التراب بهلوء وبطء . . ثم تركه وعاد للحديث من جديد . .

— « أنا ح أنخاف من إيه ؟ مش عارف ان نص عمرى راح فى السجن ؟ دنا رد اللومان » .

وضغط بالعمود مرات قليلة حول الفتيلة البارزة :

— « أوعوا بقا . . . وردة . . . وردة . . . وردة ياواد يا محمود ، وردة يا حسين ، سيب الشغل دلوقتى يا عوض » . وأخرج من جيبه علبة كبريت . . . وانحنى ظهره فوق الحجر . . . ومال بوجهه على الفتيلة . . . ثم أشعل العود ولمس بالنار عصا الخريد . . . لم يسر اللهب بها . . . لا يزال عود الكبريت مشتعلًا فى يده . . . عيناه على رأس الفتيلة تراقبها . . . واقتربت يده بالنار مرة أخرى . وفجأة قذف الحجر إلى وجهه فى دوى كتر ججرة الوحش تراباً ولهباً وندخاناً وباروداً محترقاً وغير محترق . . . اختنى وجهه لحظة وسط اللحم . . . ثم انقشع السحاب فإذا هو ملئ على الأرض . . .

تجمع العمال عليه . . . ليست الحادثة الأولى فى محجر أبو فودة . كم حامل قبله قاده سوء الحظ إلى إشعال لغم منفس وفقد روحه . . . أو فقد شعره وجلده ، وسكن البارود غير المحترق فى وجهه فى علامات أشبه بالخدري . . . وكم عاجل تفحم أنفه . . . ولكن جاسر فقد عينيه . . .

يعيش جاسر من إحسان الناس . . . غير أنه لا يستطيع الاعتماد عن أبو فودة . فى الصباح المبكر يكون أول من يصل إلى المائدة . . .

إذا سمع صوت الحجارة مقبلين ، قلب يده في الهواء يريد أن
يتشبث بواحد منهم . . كل يوم يعدى إلى المحجر . يرقط طول النهار
تحت سفع الجبل يستمع لأصوات المعاول ولغم البارود . . لا يزال لسانه
« زفرا » ، بل ربما زادت شتائم ولعناته . . يقبل لقمة « البتاو »
تعطى إليه ، لا محمد ولا يشكر . . هو زميل احتمله الحجارة بينهم في
عطف غير طائش أو ثرثار . . نصفه كرم ونصفه قسوة . كل من يحل
بالمحجر يأسره منظر هذا الرجل السمين ، وجهه مبقع حواجه من جلد
وجروح ، عيناه كعيني البوم إذا أغمضهما . .

ووجد جاسر في العصا ما يتوكأ عليه ويساعده في خطوه . .
من كان يظن أن خطوة جاسر المترنحة وقدميه الثقيلتين نبوءة عجيبة
بعماء ؟ مشيته هي لم تتغير . . ولكنها لا تستثير الآن فيمن يراه
دهشة أو عجباً . . فليس أمامه إلا أعمى يتحسس لقدميه موضعاً . من
أين له أن يعلم أن هذه المشية « دمغة » لا تزول أرث سجن طويل
عاش فيه جاسر تربط رجله الواحدة بالأخرى سلسلة قصيرة . .
خمس عشرة سنة تتدفأ من حرارته . . هي عرق في جسمه . . يكاد
يجرى فيها دمه X

X نشرت أبو عودة في جريدة السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٢٠٢٧

١٩٣٣/٢/٣ ، ص ١٤ ، ١٥ ملحق العدد ٣٠٥٧ ، ١٩٣٣/٣/١١ ص ٢٦ ، ٢٧

حياة لمن

عندما انتظم حسنين ابراهيم في سلك الخفراء بالقاهرة كان فخر الطابور بقامته المرتفعة وصدره العريض وذراعيه القويتين وجبهته وهي ملساء تلمع حياة وشباباً . وامتاز فوق ذلك بجرأته التي اكتسبها من قضاء ليلاته منفرداً وسط الحقول لحراستها . وسحبته إلى رفقاته أنه ذو حديث حلو يدل على معلومات واسعة وذكاء طبيعي صقلته المدينة وأبرزته .

وازدادت قيمته لديهم وكثر إعجابهم به عندما أذاع بينهم أحد أصدقائه قصة حدثت بها حسنين في نشوة من نشوات الذكرى التي تدفع صاحبها إلى البوح بعاطفته فتغلبه وتغلب فيه حب الحكم

والانفراد . فعلموا أنه قروي نشأ بالريف وترى وسط حقوله ولولا
القدر لكان يرتدى اليوم بدل معطفه الخشن الأصفر جلباب الفلاح
الأزرق الملطخ الحائل اللون . ولكان يقضى طول يومه على الظهر
فوق فأسه بدل أن يظل الآن منتصب القامة معتمداً على نبوته الطويل .
فأى شئ غير القدر هو الذى يرمى بالمرأة فى طريق الرجل فتخرجه
من حياة إلى حياة أو يجعل منه شخصاً غير ما كان ! قصته إذن قصة امرأة
كانت مشهورة فى القرية بميلها إلى الرجال وقلة تورعها فى التحدث إليهم
ومقابلتهم وما لبثت أن انتقلت إلى البندر تحت ضغط الوسط الذى تعيش
فيه لترزق هناك من عرضها ... وهى نهاية محنومة لكل فتاة تسهر
بشرها فى الريف ، وإن هربت منها فإلى موت أكيد ؟

فهجرت الفتى قريته ورحلت إليها ، ثم ما لبثت أن جرت إلى العاصمة
فهوى معها حيث استمر عاطلاً زمناً غير قصير تلوى فيه فقر
المدينة على خلاف ما كان يعهده من فقر الريف . ففلاحو القرية فقراء
ولكن لا يمتاز بعضهم عن بعض . يسرون جميعاً من حقلمهم إلى
دارهم كنفاً جنب كتف ، ولكنه فى المدينة فقير وسط أغنياء .
يقطع المسافات الطويلة سعياً على قدميه ليصل إلى أحقر سقف يظل
إنساناً تحت سماء المدينة !

وظلت علاقته بالفتاة متصلة إلى أن أصابها شئ من الفتور .
ولو أن هذه الظروف أحاطت بغيره لا لتمس النجاة فى الرجوع
إلى قريته ولكنه آثر البقاء فى المدينة إشفاقاً من نخجل يزعم أنه يشعر به

إذا وجد نفسه مرة أخرى بين أهالي قريته وهم لا يعرفونه إلا بشهرته
في متابعة فتاة من بلد إلى بلد . وهذا علر متحل إذ لا شك في
أن السبب الحقيقي هو أنه سقط تحت تأثير المدينة . وقد استهوته
بأنوارها ورفاهيتها . ومن لا يلتمس له العذر . وقد انتقل
من أبسط وسط وأنحسنة إلى مدينة يعتبر مجرد الوجود بها والسير في
طرقاتها لذة وتنعماً . والمدينة للقروي كأنه لشارب تسحره وتأمره
فينقلب عبداً ذليلاً لها ويضع تحت قدميها حياته الوديعه المائدة ليستبدل
بها حياة محمومة مضطربة ولكن تتابها بين حين وآخر نوبات سرور
ولذلك قنع حسنين إبراهيم أن يكون خفياً يتناول أول كل شهر
اثنين من الخنفيات لا تقيم له أوداً ولا نجيء بكفاف زوج وطفلين
(وأي عجب في أن يعشق حسنين إبراهيم امرأة وهو مترح من
أخرى .. أليست زوجته نوعاً من المتاع لا قيمة له ولا تدخل في
حسابه ؟)

وكان من تأثير هذه الفئة أن أقر له زملاؤه بنوع من البطولة التي
وإن كانوا ينكرونها جهاراً فهم يعجبون بها سراً ، ويتمنى أحدهم لو
وقع له في حياته ما وقع للبطل . ومن هنا كان أكثرهم يستشير في
أموره ويتصيح برأيه .

مرت عليه شهور إلى أن كان دركه في شارع تجاري كبير .
ولكنه شارع وطني لا يلبث مؤذن العشاء أن يدعو الناس إلى الصلاة
حتى يهرع أصحاب المجال التي به إلى تلبية ندائه ، فيخلقون أبوابها ،

فإذا قضاوا الصلاة اتجهوا إلى منازلهم القريبة وكل منهم يحمل شيئاً من مأكّل وفاكهة .

فإذا تقدم الليل أصبح الشارع مظلماً صامتاً لا حركة فيه . ترتعش في أرجائه أضواء المصابيح إذا ضربها الهواء فترقص معها على الجدران أشباح سوداء غريبة .

في وسط هذه الوحدة الموحشة قضى حسنين إبراهيم أياماً طويلة لا يشغله عمل واحد يستطيع أن يمحصر فيه تفكيره لينجو بنفسه من قبضة . ملل يطحنه بقرنيه فيبعث إليه التأفف والسأم في عمله وحياته .

وكان الشارع لديه في أول الأمر شيئاً جديداً له بهجة كل جديد ولذته فشغل حسنين نفسه بدراسة الشارع دراسة دقيقة حتى ألفه وحفظه كما يحفظ المرتل أنشودة يتلوها عن ظهر قلب ولكن الاعتياد والتكرار أفقدها كل لذة وسلباه اهتمامه فأصبحت حياته بالشارع عملاً يؤديه رغماً عنه وهو غائب الذهن غير مبالي أو مهتم به . ثم انتهى به السأم إلى أن اختار حجراً بالطريق يجلس عليه معظم الميل يسلي نفسه بتنظيف غطاء رأسه بكم معطفه ويقتل شاربته عيناً ويساراً ... فكم من مرة قطع فيها الشارع سيراً وذهاباً وإياباً فاحصاً بنظره الأرض ، محدقاً في أبواب المنازل مختبراً لأقفال المحال (حتى يطمئن على دركه) منصتاً للأصوات الهاتفة التي تخرج إليه من المنازل . ولقد كان يحدث أنه كان يقف أثناء سيره أو يسعى من أول الشارع إلى منزل ينصت بانتباه إلى ما يصدر عنه من أصوات ...

وبذلك أصبحت حياته جزءاً من حياة الشارع ، يعلم كم حفرة
تفسد استواء الطريق ، وموضع كل منها . اعتاد حسنين إبراهيم
أن ينتظر بشغف كل ليلة رجلاً يرجع إلى داره متأخراً ويجلس بجانب
النافذة والغرفة مظلمة يدخن لفافة التبغ وهو يحرق في السماء
فكانه بينه وبين هذا الرجل ميعاد في كل ليلة ...

وإذا وقف بأول الطريق علم وهو بمكانه أى المنازل ينبعث منها
صوت بكاء طفل صغير يصحبه صوت امرأة تغنى له وهى تضرب ظهره
ضربات تترن مع نغمتها وتسمع بجلاء من الشارع . وأصبح لا يهتم
عندما يسمع بعد منتصف كل ليلة صوت رجل مريض يتأوه ويتوجع
ولا لأصوات المشاة والعراك بين رجل وامرأة في منزل آخر .

وكم من مرة أبصت لطالب يستذكر دروسه في أول الليل
بصوت مرتفع حتى يأوى إلى فراشه بل أصبح ينظم أوقاته ويعلم بمرور
الزمن بمميزات أوجدها لنفسه ، فعلامته على أن منتصف الليل
قد مضى فتى قصير القامة يقبل إلى داره في خطوات بطيئة ، واضحا
يديه في جيبي بنطلونه وحاملاً في تجويف ذراعه الأيسر رزمة ضخمة
من الجرائد يسير ولغافته في طرف فمه ، وطربوشه منحدر
فوق جبهته ، وعيناه باحثتان عن شيء ضائع منه في الأرض
ويدله على اقتراب الفجر صوت جرس المنبه يلقى من أحد المنازل
فيستيقظ على صوته المزعج رجل يلبس قبقابه ثم يحول به في أنحاء

منزله ثم يتدبّر في تلاوة القرآن . وقلها كانت هذه المميزات والعلامات
تخطىء معه .

. . .

في ليلة من ليالي الشتاء الباردة التي يقر فيها الناس في بيوتهم
يتدفأون كان حسين ابراهيم كعادته بالشارع ، هو وحده الذي
لامأوى له من الأمطار الهائلة والرياح الهوجاء ! وكان من عادته
أن يتخذ من بروز بعض المنازل في الطريق سترأ له من رذاذ المطر .

في هذه الليلة وبعد انتصاف الليل بكثير لمح حسين ابراهيم شخصاً يأتي
من بعد تطوف برأسه هالة بيضاء يسير محني الرأس والظهر وكأنه
جسد بلا ذراعين في مشية كشية الرجل فقد شيئاً يبحث عنه باهتمام
في الأرض دون أن يقف في سيرة ، وكان هذا الشخص الغريب
يسير بجانب الجدار ويتسكع قليلاً بجانب أبواب الهال ، بل إنه وقف
مرة أمام أحد الأبواب وأطال ، وعندما اقترب من حسين ابراهيم
ورآه نشط في مشيته ، واستطاع حسين أن يراه ويتبينه فإذا الهالة
البيضاء (كوفية) يلفها الرجل حول رأسه ويغطي بها أذنيه وإذا
هو قد لف ذراعيه واضعاً كفيه تحت ابطنيه وانكششت رقبته فالت
رأسه إلى صدره من تأثير البرد وطلباً للدفء الذي لا يجلبه إليه ما يلبسه
من لباس رقيق : ولما حاذى الخفير التفت إليه وبصوت أجش كأن
صاحبه لم يتكلم منذ مدة قال (سلام عليكم) ثم أرغم نفسه على
كحة ليسلك بها زوره ، فأجابه حسين بشيء من الريبة (سلام) على .

خلاف عاداته إذا رد التحية فإنه يقول (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)
ثم تبعه بنظره متمهلاً حتى غاب الشخص عن نظره .

والواقع أن حسين إبراهيم عندما طالت مدته بالشارع اعتاد
أن يتفحص كل شخص جديد يمر أمامه ليجد لنفسه مجالا جديداً
تستريح عيناه بالنظر إليه وينشط فكره ويستفيق من رقاده وسأله .
اعتاد حسين إبراهيم أن يقصد إلى قهوة (حسن علي) عصر كل يوم ليتناول
(فنجال قهوة) أو (كوبه شاي) وفي اليوم التالي اتخذ مكانه المعتاد
فإذا بجانبه شاب يلف رأسه بكوفية ... هو بعينه الذي لم يتنازل
حسين بالأمس أن يرد له التحية بمثلها ولا يزيد . ودار الحديث بينهما .
وشرب حسين إبراهيم الشاي (وجوزة تمباك حمى) على حسابه فربطتها
صداقة سريعة كالتى تنشأ عادة بين الجلاس في الحانات والمتنديات .
وكان الشاب حلو النكتة يحادثه عن النساء وعشيقاته وغزواته المتكررة
في المنازل فاعتقد حسين أنه (جدع) من فتية الحى الذين لا يهمهم
شئ ولا يقف في سبيل تنفيذ رغباتهم مانع من الموانع .

وتكررت مقابلاتها كل ليلة . فتعرف حسين بجميع أصدقاء (عبده)
وشهرته (حماية) وهو لقب يتخذ له لنفسه دلالة على أنه لا يخضع
لحكم البوليس المصرى استهزاء به . وتطرفت الصداقة إلى درجة أن
حسين كان يصحب عبده في زيارته لأصدقائه في منازلهم ويحتج
ألا تفوته فرصة يجتمع فيها به .

وعندما دخل حسين منزل (عبده) لأول مرة ذهل كثيراً لأنه
رآه على تهاة أثاثه ، مزوداً بأصناف كثيرة من البضائع ، ورأى

في غرفة (أثواب البقعة) - و (مقاطع الشاش) ومقاطف البن
وكيات كبيرة من السكر والصابون وأقراص الحبنة الرومي والفلمنك
وعلب الحلوى والشكلاتة ، وعدداً وفيراً من الساعات وصفائح
الزيت الصغيرة ، ثم لاحظ أن كل واحد من أصدقاء عبده يخرج
من الزيارة حاملاً صنفاً واحداً من هذه البضائع المكسرة لا يتعداه
مها تكررت زيارته فأم أحمد الدلالة تأخذ معها القماش وأبو النجا البقال
بجبة السيدة سكيته يأخذ أصناف البقالة . أما الساعات فيأخذها شاب
من الدين يبيعون (إنشا للجوابات . فوازير . حكايات . أغاني
وروايات) يسافر بها إلا بلاد الريف في أيام المواسم والموالد .

أخلت هذه المناظر والتجارب تمر أمام عينيه ولكن حسنين كان
صامتا لا يرضى أن يصرح لنفسه باعتقاده في مهنة هذا الصديق الحديد
بل استمر صامتا متردداً . وحجته أنه لا يعنيه من هذا الأمر شيء .
ولأنه على (بر خليص) إذ مادام أنه بعيد عن الشبهة . فلا يهمه إذا
كان (عبده) لصاً أم لا . ولذلك لم ينكص عن محادثة (عبده) في
أصناف القطع الحديدية اللازمة لفتح الأبواب (إذ رآه يملك عدداً
وفيراً منها) فأراه عبده الأصناف المختلفة ودله على أسمائها وكيفية
استعمالها وأخيراً أخبره عن الأشخاص الذين يبيعون له هذه الأشياء
كان حسنين يصغي إلى هذه التفاصيل بشغف وشوق وتنطبع ذكرى
الأحاديث في ذهنه بقوة وتأثير .

وأخيراً لم يفته أن يلاحظ أن (عبده) يخفي في ناحية من الغرفة

صندوقاً صغيراً به (تذاكر صفراء) يستهلكها بسرعة ولاحظ أيضاً
أن أصناف البضائع تقل فتكثر التذاكر .

فإذا نفذ الكوكابين إمتلاء المنزل مرة أخرى بالبضائع !
النتيجة الطبيعية لمسلكه هذا أنه لم يدهش عندما سأله (عبده)
ذات مساء (هل تحضر معنا هذه الليلة ؟) ولم يكن هذا السؤال يخطر
على باله فصمت ثم (قال : لما نشوف) فتواعدا بالقهوة .
لم يدر نزاع كبير في نفس حسين ابراهيم وكانت حجته كحججه
السابقة أنه مادام سيذهب متفرجاً فلا خوف عليه .

فيذهب وهو في ملاپسه العادية وكانت مأموريته
أن يقف بأول الطريق حتى ينتهي عبده ورفيق له من كسر باب محل
وسرقة ما به . وتم ذلك بكل سهولة ولأجل أن يكافئ (عبده)
الخفير على خدمته أعطاه قرص جبن فقبله (مادام أنه لم يسرقه هو
شخصياً) ثم كلفه أن يحمل الباقي من السكر والصابون إلى أبي النجا .
وفي طريقه إلى أبي النجا إنتهى به منطق كان يتعب رأسه قليلا
إلى أن يعرج على منزله ، فيملأ خزانته من السكر والصابون ويذهب
بالباقى إلى أبي النجا وهو يقول سرّاً (ابن الكلب ! هو دافع فيه
فلوس . مادام حاجة بلاش !) .

حدث بعد ذلك أن انتقل حسين ابراهيم إلى درك آخر تبع
قسم يبعد عن قسمه الأول . ولا بد لنا أن نقول هنا أنه أكثر أخيراً
من زيارته إلى عشيقته . وأطال في سهره وأسرف في شرب المسكر

حتى ركبته دين قليل دفعه كثيرا إلى التفكير . ولكن انتهى به الأمر إلى أن تقدم لرئيسه متراضاً يطلب أجازة يوم فيسمح له بها . وعندما أقبل منتصف الليل سار حسين إبراهيم متسللاً حذراً إلى أن وصل إلى شارعهِ القديم الذي قضى فيه أياماً طويلة فعرفه حق المعرفة وحفظه عن ظهر قلب ، فعلم أقوى أقفاله وأضعفها ، وأوقات غفلة سكانه ويقظتهم . فخرج في حارة صغيرة ليس بها إلا مخزن واحد يعلم عن صاحبه حداثة عهده بالتجارة . وأخرج من جيبه طفاشة من الحديد (ولو بحثت عن الوقت الذي اشترى فيه الطفاشة علمت أنه اشتراها منذ أن ابتداء يعاود علاقته مع عشيقته) وبحركة بسيطة فتح باب المخزن .

وسار إلى منزله وجيبه مبلل بالعرق . وعندما أتى الصباح استطاع أن يقبض ثمن ما سرق من أم أحمد وأبي النجا ، وإن غبن في السعر لحداثة عهده ولخوفه في أول الأمر ولأنه لم يصبح بعد (قديم في الكار) وحدث بعد ذلك أنه كلما كان حسين إبراهيم في أجازة وقعت سرقة من سلسلة سرقات متشابهة متتالية في هذا الشارع المظلم الهاديء ومنذ ذلك الحين انقطع حسين إبراهيم إذا كان في (دركه) عن تنظيف غطاء رأسه وقتل شاربيه .

فتوۃ دیجتری

هي غير خاصة ببلد دون بلد ، هي — إن شئت — (ماركة)
لقهاو عديدة منتشرة بريف مصر شمالها وجنوبها . في كل بلد صغير
أو قرية كبيرة . إذ كلها تتشابه في أن الذي يديرها رجل هو في
بلد — ديمتري وفي أخرى — محالي — ولا يخرج اسمه عن أن يكون
واحدا من هذه الأسماء — وما يشبهها من تودري ونخريستو أو يني
ونخرالبو ..

هي قهاو تحتل مكانها في هدوء وسلم وتستمر في نمائها من محافظة
على التقاليد التي أوجدتها منذ نشأتها الأولى . معتمدة على وسط واحد
لاتحيد عنه حتى تصبح مع الزمن خصيصة من خصائص هذا الوسط

وظاهرة كبيرة الأثر في حياة الشعب المختلفة النواحي قد تعادل أهميتها
أى ظاهرة أخرى .

وكذلك تجد كلمتا (قهوة ديمتري) مجالا في حديث الناس
وحياتهم كما تلقاه ألفاظه قصيرة تؤدي معاني جمة كالنقطة والمركز
والمحطة وعند العمدة وأخيراً الكفر (١)

وفي كل بلد تمتاز (قهوة ديمتري) عن بقية القهاوى بنظافة
مقاعدھا ومناضلھا ، وبهلوء جوھا وخلوھ من الضجيج وألفاظ السباب
والمضاربات والمعارك . ويتكبرھا عن تقديم (الجوزة) البلدية إلى
زبائنها مستعيضة عنها (بالشيشة) التى يعتبرھا الرأى العام أرقى من
(الجوزة) تحت تأثير اندفاع الجمهور فى الزمن الماضى فى التشبه
بعادات حكام الأتراك ، ومنها تلخين (الشبق) . فلم يستمر على
استخدام (الجوزة) وهى مصرية صميمة - سوى الطبقة الدنيا ..
ولعل السبب فى نجاح قهوة ديمتري هى أن الذى يديرھا رجل
يونانى (ولكنه موصوف بالرومى لدى أهالى البلد) محقيراً بلخسية هذا
المهاجر الغربى (.

تجربى فى دمه مهنة إدارة القهاوى بالوراثة من أب عن جد ،
والا فلماذا لا يستطيع محمود أو على أو حسن جيرانه الوطنيون تقليده .
فها هم يرونه قد حجز المكان الذى يعد فيه طلبات الجلاس بستان خشبي
رفيق بينا هم لا يزالون معتمدين على استعمال (الغلاية) ، ذلك

(١) لفظ يطلق فى الريف على مكان البغاء الرسمى .

البناء الحجري الذي يضعونه في ركن من أركان القهوة دون ستر
والذي يعلو فوقه (البكرج) الأصفر الكبير المعد لظلي الماء
للقهوة والشاي والزنجبيل فيرى الخالس إليه الماء القلتر بجوار البكارج
ويرى (المعلم) يغسل فنجاله في ماء أسود عكر ثم يمسح يديه في
في جلبابه القدر ، . ثم يسمع الخادم ينادى بطلبات الزبائن في لهجة
منكرة وألفاظ عامية مبتذلة من (واحد أزوزه . واحد جتربيل
واحد تمباك حمى .)

ثم يرى زبونا بجانبه لم يفلح في (شد الحوزة) فينادى الخادم
فيتنفس فيها شهيقاً قوياً وينتهي من مأموريته بالبصق في الأرض مرة
ومرتين ...

وديمتري يستعمل كراسى مريحة بينما هم يصرون على هذه الدكك
التربة والمقاعد الخشبية ذات القش المجدولة صفائره الخضراء والبيضاء
ولكن المهم فوق هذا أن ديمتري يقدم لزبائنه أنواع الخمر
وبطبخ لهم دون غيره أكلا نظيفاً يتناولونه في الظهر والعشاء .
وليس هناك من قهوة غيرها يجد فيها الزبون (فيشا) للعب
البوكر مع الاستعداد المطلوب من ورق أحمر وأزرق يتبادل كلاً
تأثير الورق بالاستعمال أو كلما أراد تغيير مجرى حظه .

لكل هذه المميزات أوجدت (قهوة ديمتري) لنفسها مركزاً
يكاد يكون شبيهاً بالرسمي لأن موظفي البلد لا يجلسون لأنفسهم متدياً
يقتلون فيه الوقت في النهار وجانب من الليل ويكون في الوقت نفسه

لألقابهم سوى (قهوة ديمتري) فقد تجدد حضرة العمدة ينصت لشكاوى الناس وهو في مقعده المعتاد بالقهوة، وتري وجوها لا تألفها إلا من وراء مكاتب وأكوام الورق واللوحيات بل تسمع نفس الحديث الذى يلور بين الموظفين في محل عملهم وهو لا يخرج عن ترديد أخبار العلاوات والتنقلات وآخر أخبار فضائح الأصدقاء .

إذن هي في الواقع محل مختار للموظفين يمثل أوقات راحتهم وسرهم كما يمثل الديوان وقت عملهم ...

فحضرة العمدة في عمامته التي تغطي نصف جبهته وبعطنه البارز وعينيه الضعيفتين ينظر إلى كاتبه في جلبابه وقلمه الموضوع بجانب أذنه ويقول له دون أن يدير رأسه (لما يعوزني حد أنا في قهوة ديمتري)

وإذا وصلت لمعاون البوليس إشارة تلفونية فإن عسكري المراسلة لا يجهد نفسه في البحث عنه بل يتجه إلى قهوة ديمتري فيلقاه مجتمعا بأصدقائه حول زجاجة جعه وأطباق المزة. فإذا تقدم إليه بالرسالة قطب معاون جبينه واستعاذ بالله ثم خطفها منه حائقا . فإذا قرأها ودها إليه قائلا في لهجة ملؤها الاستهتار (طيب روح .. بكرة) .

وإذا انتقل إلى البلد موظف أعزب لا عنا وظيفته التي تجعله لا يتوطن في مكان واحد وتجبره على تغيير أصدقاء واصطناع آخرين مرة بعد أخرى ، مشغولا مثقلا في إعداد مسكنه الجديد وترتيب فراشه وقد تملكته حيرة ليست بالهينة ، كيف يجد لنفسه أكلا يسد به عن نفسه غائلة الجوع وهو لا يستطيع أن (يسلق بيضتين) كفاه إخوانه

الموظفون مؤونة هذا الجهد وقالوا له (عند ديمترى) ، فيذهب وقد يجلس في مقعد للموظف الذى حل محله بالضبط وبذلك يكون زبائن الخواجة ديمترى وظائف لأشخاص ، فيهم مثلاً معاون الإدارة ومعاون البوليس ، وطبيب المركز ومساعد مهندس الري . ولا يهمه بعد ذلك إذا كان أحدهم زكى أفندى أو عمر أفندى .

ويجد زبائن ديمترى عنده لأنفسهم حرية أوسع مما يلقاها القاهرى مثلاً في قهوته المعتادة ، حيث لا مجال هناك للتعرف بكل من يرتاد القهوة مثله . ولعل هذا راجع إلى أن قهوة ديمترى صغيرة الحجم عدد زبائنها قليل ، بل وتربطهم معرفة خارجية مستقلة عنها . ولذلك نجد أحدهم لا يتحرج إذا كان بمقعده في جوار الباب أن يحدث شخصاً في آخر القهوة بصوت مرتفع يسمعه كل الحاضرين .

ويرتقى ديمترى عن أن يكون (جرسونا) بسيطاً كأي جرسون آخر في مصر ، ويصبح نديماً لزبائنه يهزءون بلهجته الرومية وبجنسيته تعصباً للأتراك ، ثم لا يتحرجون من أن يودعوه بعض أسرارهم ، وأن يقترض أحدهم منه إذا خسر (صولده) بأجمعه في لعب البوكر إذا عثر به حظه .

إذن علمت بعد هذا كيف يستطيع ديمترى أن يجد رزقه في البلد . إن الأهالى كالطفل يلدل النقود في دمية يلهو بها ويتحكم في حركاتها ويظهر قوة ساعده واستبداد ارادته بتهميش رأسها . كذلك هم في حاجة إلى شخص يهزءون به ولا يستطيع أن يهزأ بهم فتشعر

أنفسهم بأنها تتمتع فعلا بالمميزات الخليفة بجنسيتها والخاصة بطبقها
الاجتماعية

تقع قهوة ديمتري التي سأتخذها نموذجا لهذه القهاوى المتشابهة
في بلد صغير من بلاد مديرية الغربية يضمها النيل إلى صدره الرحيب
غير حاقدا على هؤلاء الناس الذين يشقون لحيته ويمتطون ظهره بفلكهم سعياً
إلى الأسواق في المدن والقرى. ويغسلون أجسادهم ويزيلون صدأهم
ثم بعد ذلك يهملون عبادته التي طالما ألفها من أجدادهم الأقدمين .
وديمتري طبعاً رجل يوناني لا ندرى متى جاء إلى مصر أو لماذا
اختار هذا البلد دون سواه ، والظاهر أن هؤلاء الناس قدرة
على التشبث بمكانهم في بلاد غربتهم لا يرحلون .

وهو رجل طيب القلب ، غير كبير المطامع به شئ من الغباوة
المزوجة بطيبة ، لا يزال رغم إقامته الطويلة في مصر ينطق بكلماته
في لهجة رومية ، فإذا أنصت له زبائنه استغرقوا في الضحك وطلبوا
منه إعادة بعض كلمات يستعصى عليه نطقها ...

وديمتري قد أقبل على الشيخوخة فثقلت حركاته وقل نشاطه ،
ولذلك فإن زوجته تساعد في أعمال لا تنتقل بين الزبائن بل تظل
مختفية وراء الستار الخشبي منمكة في إعداد (المتريو والميوليبي)
فإذا مال ديمتري على الجالس يسأله ما طلبه أجابه (واحد متريو)
فإنه ينادى بهذه الكلمة بصوت هادئ وبلهجة تختلف عن لهجات
هؤلاء الحرسونات الذين يصرخون بطلبات الجالسين بكلمات يونانية

طويلة ذات وقع رنان ... أما ديمتري فإدام ينادى زوجته فما حاجته
للصريخ والأمر ؟ هو يكلمها كأنهما في منزلهما كما يحدث الزوج
زوجته في شئونهما الخاصة .

.

إذا أقبل (المغرب) تبتدىء الزبائن في الاتجاه لقهوة ديمتري
وأول من يكرر في الذهاب حضرة العمدة هربا من الانصات لشكاوى
النساء وقضايا مضاربتهن . وكل واحدة تحلف برأسه وتهتم بتقيل
رأس غريماتها ...

إذا رآه ديمتري لم يسأله ما طلبه . بل ينطق بلفظ رومى في لهجته
المملوءة بالطيبة ثم يعود بعد هنية حاملا (شيشة) بللورية يلدخن
منها العمدة فيتوه في أفكاره وهو ينصت لقرقرة الماء ثم ينفث
الدخان من فمه ويحدث في صحابه شاعرا أنه يزيع بذلك عن صدره
عبئا ثقيلا

ثم يتلوه معاون الإدارة فيتحى ناحية سرعان ما يجتمع فيها معاون
البوليس وطبيب المركز الذى يطالب عشاءه مبكرا ولا يرضى بغير
(البيض المقلى) وقليل من اللبن . (وإلا فما قيمة نصائحه لجميع مرضاه
... اتعش عشا خفيف ! قاهم !) - ثم يأتى حسن أفندى مكاتب إحدى
الجرائد يتصيد أخبار الموالد والأفراح والمآتم ثم يقبل حسن سلامة .

وحسن سلامة وجل متوسط القامة قد بكرت ناصيته - التى لا
يحجبها طربوشه المائل إلى الوراء فوق قمة رأسه - فى المشيب . وله

عينان (عسلينان) تبعثان إليك معاني كثيرة من الطيبة وهدوء النفس يعكروه في بعض الأحوال . ألم ظاهر إذا ضاقت به الحالة المالية . فهو يتاجر في الملابس الداخلية . ثم يقوم بالجمهور الموظفين والأهالي بقضاء جميع حاجاتهم التي لا توجد إلا في طنطا والأسكندرية ، فيسافر لأحداها كل يوم في مقابل أن يقتضى منهم شيئاً زهيداً فوق الثمن ، ولذا فإن لحسن سلامة اشترائك في السكة الحديد ومن هنا كان معروفاً لدى أهالي البلد بلفظ واحد هو (الأبونية ..) فيسأل أحدهم الآخر (هل رأيت الأبونية ؟) . وهو فوق هذا محبوب لايسبب لنفسه عند أحد الناس كراهية أو ضغينة .

إذا وصل (الأبونية) إلى قهوة (ديمترى) سلم على الجميع بصوت مرتفع فأجابه بتحية باشة وقد يسمع من نواح كثيرة (أهلاً وسهلاً بأبو على !)

ولا يستقر به المقام حتى يأتي له الخواجة ديمترى بالورق فيجلس أمامه رجل اعتاد أن يلعب معه كل ليلة . ويتحضر كلاهما للعب . وربما نشط بعض الحاضرين إلى مشاركتها في لعبها فينضم لها اثنان آخران مشهوران بمقدرتهما في هذه اللعبة حتى يكون اللاعب (حامياً) والنضال عنيفاً .

يجلس الأربعة حول منضدة في وسط القهوة ونحت (الكلوب) الوحيد بها . ثم يبدأء سلامة في تقطيع الورق بحركة سريعة تدل على خبرة تامة ثم (يفرقه) أربعة أربعة وهو يمازح من معه .

وفي أول الأمر يجذب (الأبونية) بعض الحاضرين إلى مشاهدة
اللعب فينقلون مقاعدهم : واره و كلهم يتحزون ضد خصمه ، فإذا
تقدم اللعب وعلا صوت (الأبونية) من (انزل بالعشرة ...
هات الدوه .. ياعين عليك ولد ابن حلال ... بصرة ..) جذب معظم
الحاضرين بالقهوة حتى تصبح بجلاسها متركزة على شخصية (الأبونية)
الذى يقود أبصار الحاضرين . وهم يتتبعون بشوق وشغف حركات
إنسان عينيه في دهشته العصبية وقد أخذته حدة اللعب وتلور على
شفاهم ابتسامة خفيفة لا ينتبهون لها ولا تفارقهم طول الوقت ويختفى
عندئذ لدى كل شخص متاعبه وآلامه .

بل وآماله وتنحصر حياته في الوقت الراهن يقضيه في لذة ونسيان .
إذا ساعد الحظ (الأبونية) انقلب بالتأنيب والتبكيت على خصمه
مكيلا له الاستهزاء والاحتقار (انت تعرف تلعب . مين اللى علمك .
روح اتعلم ياشيخ .. ما بقاش الا نلاعب عيال ..)

والفاظ الاستهزاء هذه ضرورية في لعب الشرقيين كالتوايل في
طعامهم لا يحلو لهم بلونها ..

وأنت إذا دخلت إحدى المتدييات الكبرى بالقاهرة مثلا . وجلت
معارك كبرى تلور داخلها في صفين من الناس يجلس أحدهما قبال
الآخر .. يلعبان (الطاولة) فكأن بينهما خصومة شديدة لا يكتفون
بفضجيجهم بل تحتم عليهم أصول اللعبة (أن ينقلوا الحجر) بقوة . وقد
تجد أحدهم يرفع ذراعه إلى أعلى ثم يضع الحجر في مكانه كأنه يلق

مسمارا . وإذا سرت بجانب صف منها سمعت ألفاظ الاستهزاء من واحد ووجدت وجوما من آخر بحسب ما إذا كان غالبا أو مغلوبا .

يظل (الأبونية) في مرحة ونشاطه وهو يكمل الاستهزاء لخصمه حتى يجد نفسه فجأة أمام (الأرض) وقد أتى عليه الدور في اللعب وليس في يده إلا ورقتان سبعة وعشرة... عند ذلك يريث وينقل إحدى الورقتين مكان الأخرى عدة مرات ويكد ذهنه ليتذكر كم ورقة من العشرات أو السبعات (نزلت) في الأرض .

ويرتعش إنسان عينيه في رعشة عصبية حائرة ويأخذه الوجوم ويقلب نظره في وجوه الحاضرين كأنه يستطلع في نظراتهم قلره المحترق .. سبعة أو عشرة ؟ هذه هي المعضلة الهائلة التي يروح تحتها فكر (الأبونية) . ولا شك أن دقات قلبه تزداد وأن الدم يتصاعد إلى رأسه مندفعاً ... ذلك لأنه لا يلعب لقضاء الوقت بل إشباعاً لشهوة التغلب على الغير . ثم هو لا يرضى لنفسه بالإنهزام بعد أن طبقت شهرته أرجاء البلد . ولا يقبل أن يدور الحديث في القهوة يومين متتاليين بذكر هزيمته المنكرة

وبحركة وجلة مسترية يضع (الأبونية) السبعة على المنضدة ، وعندما يقفز خصمه من مقعده ويقبل ورقة في يده بصوت مرتفع ثم يلقيها على المنضدة قائلاً (بصره !) فينقلب الموقف . يصمت الأبونية ويصفر وجهه وتقل قيمة ألعابه من الوجهة الفنية تحت تأثير الإنهزام ويبتدىء خصمه في إسماعه التبكيت

والاستهزاء قائلا (فالح جدا ومشطر من الصبح
أبوه أستنى لما تغلب .. العب العب واحنا نشوف !!)
و (أبو علي) بعد رجلا طيبا مجدا في عمله لا يعرف رياضة واحدة
ولو أن أحدا من الناس قال له : « إنك لا تترناض كل ليلة بلعب
(الورق) .. لما صدقه ، ولكن هذه رياضة تفيده فتجدد دمه وتنسيه
همومه وتريح عقله وهو يقضى ، إذا كان مستريح البال والحظ ،
وقتا طويلا في اللعب وقد يلعب حسن سلامة عشر (عشرات) في
ليلة واحدة يخرج منها كلها غالباً لجميع المتطوعين لمقارنته !

يصل بائع الجرائد فتتلقفها الأيدي . وهناك زبائن خاصة لها
غرام شديد في قراءة الجرائد وكل كلمة فيها ، فإذا قرأ أحدهم في
جريدته أمسك بتلابيب زميل له سيء الحظ فيسرد عليه كل الأخبار
التي قرأها مع أن هذا الزميل البائس يكون قرأها مثله وعلم بها ولا
حاجة لديه في الاستماع لها . ولكنه لا يجد مخرجا من هذا الموقف الحرج
سوى أن يسرد لغريمه بعد أن ينتهي من قصصه وأخباره كل المعلومات
التي نسيها وقد يكرر ما قاله زميله وبذلك يكيل له بكبله .

وقد يتركان القهوة وجلاسها ويهتان في حل لغز من الألغاز التي
هي بلاء الجرائد الأسبوعية هذه الأيام . فيقرأ أحدهم (ما هو اسم
ثلاثي يدل على صفة من صفات العظماء ، فإذا قرأته مقلوبا فهو من
مستلزمات الطعام)

فيخرج من جيبه قلماً رصاصاً - وهؤلاء الناس يحرصون على أقلامهم استعداداً لطوارئ الألفاظ ١ وعلى هامش الجريدة يكتب (١ - ٢ - ٣) ثم يتريث قليلاً ويقول - قبل تبقى لن ... فيكتب تحت الأرقام (ن . ب . ل . ا) .

ثم يستمر (ثانيه وأوله وثالثه فعل بمعنى أرى بسرعة) فيقول (نبل ٩) ويكرر ما حسب الأوزان المختلفة تارة بالضم وأخرى بالجرم فلا تنفع معه . فينتقل إلى ناحية أخرى من هامش الجريدة ويعاود كتابة الأرقام من جديد ويكتب (ش . ر . ف) ويقول (شرف) ١

وهو في انهماكه نسي أن زميله يكذ ذ منه بدور في اكتشاف هذا اللغز ويكون الحظ قد ساعده فيمسك ذراع الآخر وبصوت يكاد يبع يقول (آه ١ حلم يبتى ملح ولح ...) ثم يرمى القلم ويريح طربوشه عن رأسه ويميل في مقعده بينما يقلب زميله في صحائف الجريدة محاولاً بذلك إخفاء غيبته وقد امتلكه سرور وخيلاء وشعور بلذة الانتصار ..

(جريدة السهام ١٩٢٦/١٢/٢٢ ص ٣)

مَنَ الْجَنُونَ؟

نشأ محسن أفندي بن عبد المطلب بين عائلة شهيرة بدكاء أفرادها
وحدة أذهانهم - وفي الوقت نفسه - يقصر أعمارهم ، فهم لا يتجاوزون
تمام العقد الثالث حتى تلبس أجسادهم فجأة تحت تأثير نضى وبغير
مرض معروف .

وكان يعيش وحيدا مع أمه العجوز ومعمدا على إيراد صغير
يمكنه - في جهده وتقتير - من الاستمرار في دراسته بمدرسة الخامسة
ومحسن شاب قارب الخامسة والعشرين طويل القامة ، ضامر
البطن له حبة مرتفعة فوقها شعر يضرب إلى الصفرة طويل الأنف
دقيقها .

أما عيناه فواسعتان ، شديدة السواد والبريق لها حركة سريعة تنبث منهما كهرباء غريبة . وقد تختلج عينه في بعض الأوقات إختلاجاً عصبياً . وهذا في أوقات غضبه وعندما تملكه حيرة تضايقه ولعله كان أكثر فرد في عائلته ذكاء ، وأشدهم توقفاً فهو خفيف الروح ، حلو النكتة ، شهي الحديث ، يعلم عنه كل زملائه مهارته في حل المسائل العويصة التي تستعصى عليهم ، دون أن يكدر ذهنه من أجلها أو يتعمق في التفكير . إذا رأيته لم تلبث أن تعترف بأن هناك قوة خفية توزع المواهب والعقول . وأن الشخص يولد فلما يجد نفسه معلق الذهن أو شعلة من بين نار وليس هو — على الحالتين — الذي أدار المفتاح أو ألهم الكبريت ، وليس في مقدوره أن يفتح سجنه أو يطلق ذكاه .

. . .

بعد أن قال محسن شهادته بتفوق عين في وظيفة بدمياط . وعندما حل بها وجد نفسه غريباً لا يعرف أحداً . ولكن سرعان ما التفت حوله القلوب فكثرت أصدقاؤه وإن بقي له شعوره بأنه لم يخلق ليعيش بدمياط وأن موطنه القاهرة ولا يرضى بغيرها بدلاً .

وعندما أقبل شتاء دمياط برده القارس وأمطاره الغزيرة ، لم يقو جسم محسن على تحمل رطوبة الجو . فأصيب بحمى التيفوس فأقعده الفراش وقتاً طويلاً انتابه فيه هذيان وغيوبة طويلة ولكن شبابه تغلب على المرض فقام . فإذا هو شخص آخر غير ما كان . إذ قام نحيفاً مهزولاً يكاد ينكفيء إذا سار من شدة ضعفه . وترتجف ركبته

وترتعش يده . وسواد عينيه ينطق . فأصبحنا غائرين وبجفت شفاته
واصفر وجهه وانطبق شداقه

وأصبح محسن — رغم أنه كان يسترد قواه شيئا فشيئا — شخصا
سريع الملل لا يقوى على الانصات لحديث يطول وتفزعه أقل ضجة
وتثير غضبه وتأفقه

وكثيرا ما أطال التحديق في الجو وهو تائه الذهن مشرده ثم
ينهض ويتأوه بأهة يودعها تأفقه وتبرمه من الحياة .. ثم يصبح فجأة —
وبدون سبب واضح — شخصا ثرثارا كثير الضحك مرتفع الصوت
على الضحكات .

ولعل أغرب ظاهرة بدت فيه أنه كان إذا تحدث ينتقل من
موضوع إلى آخر دون ترابط أو سبب ودون أن يشعر هو بهذا
الانتقال .

وأنحلت هذه العوارض تزداد حدة حتى خطر لإخوانه الموظفين
خاطر كتموه ولم يستطيعوا التصريح به لحبهم له وإشفاقهم عليه
وأملأ منهم أن يزول ما به بعد أن يسترد قواه وعافيته .

ولكن محسن تطرف في أعماله وأصبحت له تصرفات شاذة .

إذ لما أتى وقت مساحة الأرض — وكان الازم من صيفا — رأى أنه من
السخف أن يشتغل بالنهار في هذا الحر الشديد ، وعزم على أن يكون
عمله بالليل — فكان إذا أتى قرية أمر أهلها فخرج له كل من يملك

فانوسا وساروا معه وهو يمتطى صهوة حماره يغنى تارة ثم يخطب فيهم تارة أخرى .

ودعى مرة إلى الشهادة أمام المحكمة في حادثة قتل وقعت أمامه فرأى الجمهور يدفعه بالمناكب فوقف قبالة القضاة وأمام المحامين يسألونه أسئلة بدت له تافهة فتضايق وقطب جبينه . وأكد للمحكمة أنه رأى القاتل يضرب ، ولشد ما كانت دهشته عندما سمع القاضي ينطق بالبراءة . وعلم بعد ذلك أن القرار بنى على أن (حيث أنه لم يقم على التهمة دليل راجع فأقوال الشاهد الأول (وهو محسن) متضاربة مضطربة وتعارضت مع أقوال الشاهد الثاني ولذلك عندما أوى إلى منزله لم يتم وفكر طويلا في هذه الحالة السيئة . وفي الصباح كان قد أتم خطابا مكونا من عشرين صفحة أوله (تقرير مرفوع من محسن عبد المطلب إلى معالي وزير الحقانية بمشروع تعديل نصوص قانون العقوبات) وكان مما فكر فيه أن تكون الجلسات كلها سرية لأن الجمهور يحدث ضجة تشوش على القضاة وتثير أعصابهم دون أن يشعروا وتجعل أحكامهم مضطربة من تأثير الجو المملوء بالضجيج الذي يعيشون فيه وأن يمنع المحامون من عملهم لأنهم يقلبون الحقائق بالفاظهم وخطبهم الفارغة . وأن القضية إذا كان بها محام فلا بد أن يحترس القاضي منه ويراقبه ليعلم محاولاته في التغرير به

وبعد أسبوع واحد إذ هو يمر في بعض الأراضي المملوكة لوزارة الزراعة والأوقاف رأى النبات مريضا والاهمال ضاربا أطنابه فكاد

عسكر بتلايب أحد الفلاحين يضربه . وسهر ليلة أخرى وفي الصباح كان قد أتم (تقرير مرفوع من ... إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بشأن إلغاء وزارتي الزراعة والأوقاف وإضافة عملهما إلى وزارة الحربية) .

وكتب (مذكرة ايضاحيه) قال فيها ان في مظاهر الدولة المصرية تناقضات كثيرة . والجيش المصرى كافة من جنود وضباط لاعمل له لأن الغرض من الجيش الحرب ، وحيث اننا لن نحارب أحدا فلا لزوم للجيش ولاينى بعد ذلك مبرر لوجودهم وصرف مرتباتهم الطائلة وأكلهم مجاناً من خزينة الدولة ، ولذلك فإنه يجب تشغيلهم في الأراضي البور وأراضى وزارتي الأوقاف والزراعة .

وقال في فوائد هذا المشروع إن العزبة القلعة ستصبح معسكراً نظيفاً وأن الخولى سيكون يوز باشى أنيقاً ، وتنقلب المدافع بسهولة إلى محاريث ، وتصدر الأوامر إلى الفلاحين بالبورى من الخولى . وبذلك يسير العمل بانتظام ولايهمل الفلاحون من الجنود في عملهم لأن القانون العسكرى يطبق عليهم .

وعلى ذلك كانت المادة الأولى في القانون هي :

المادة الأولى . تهدم جميع العزب الكائنة في مصر سواء بالوجه البحرى أو القبلى لقلدارتها وقلة الضوء فيها وكثرة البق والبراغيث ، وتهدم جميع التكنات العسكرية في العاصمة والمدن وتنقل الحجارة والديش

إلى أراضي وزارتي الزراعة والأوقاف ويبنى في كل ألف فدان ثكنة واحدة . . .

المادة الثانية - يلغى القانون العسكري الحالي ويستعاض عن جرائم التسليم للعدو والإهمال بحسن الضبط والربط بجرائم التأخير في الحرق والري والإهمال في تنقية البوادة . .

المادة الثالثة - يكون في كل ثكنة برج عال يقف فيه اليوزباشي الخولي ليصدر أوامره بالبورى إلى جماعة الجنود المنتشرين بالأرض . .
ثم لما رأى أنه صاحب مشروعين كبيرين قرر أنه يتم اقتراحاته فمهر ليلة أخرى وفي الصباح كان قد أنتم تقرير مرفوع إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بإلغاء المحاكم الشرعية وإضافة أعمالها إلى وزارة المعارف)

وملخص اقتراحه أنه يجب على كل رجل أعزب ، أو امرأة عزباء أن تقدم إقرارا بذلك إلى وزارة المعارف التى تعقد في كل ستة شهور امتحانا للذكور وآخر للنساء فإذا ظهرت النتيجة أجبر الأول في الناجحين على تزوج الأولى من الناجحات والثاني من الثانية وهكذا . .

وقال إن من فوائد هذا المشروع القضاء الأخير على طائفة (الخاطبات) وأن الحظ سيخرج بتانا عن الزواج الذى يجب أن نصونه عن التلاعب الحاصل الآن . وأن التزاوج سيتم بين القراء ولا يغيب أحد في نصيبه فتقل الشكوى ، وينتج نسل منتظم يعتمد على وراثة صحيحة .

ولكنه بعد قليل لاحظ أن مشروعه ناقص فأرسل إلى رئيس الوزراء
بخطاب يكمل النقص وأخبره أن يجيز عقد ملحق للمناقطين . وأن
الذين يسقطون في الملحق يوضعون تحت المراقبة ولا يسمح
لهم بالسهر بعد الساعة مساء (هذه هي الطائفة التي يجب على الحكومة
مراقبتها لأنها هي التي تعيش فساداً في المنازل وتحرض النساء على القبح
وليست هي طائفة المنتشردين الذين تهتم بهم الحكومة على حقارة
شأنهم وتفاهة قيمتهم فتسخر لهم العمدة والبوليس ليراقبهم في
حركاتهم وسكناتهم)

وأخيراً كاد محسن أن ينقطع عن عمله . وسر لتغيبه هذا جميع
الموظفين لأنهم وإن كانوا يشعقون عليه فإنهم أصبحوا يخافونه ويرتعبون
من نظراته وحركاته . وكل الناس ترتعب من المحنون ولو كان أهدأ
الناس وأطيبهم قلباً .

وكان محسن يمتطي جواداً له ويسير في الأطنان ، وسواء ما كان
مملوكاً منها للحكومة أو للأفراد ، ويأمر الفلاحين الذين أصبحوا
لا يهتمون به ولا بأوامره بأن يعتنوا بالأرض ، وكان من تأثير ذلك
أنه أصبح يعتقد أنه هو المالك لهذه الأرض الشاسعة بل أنه يمتاز على
هذا المالك المتغيب بالقاهرة والذي لا يرى أملاكه إلا مرة واحدة في
عمره ، بل بماذا يفترق هو عن المالك ؟ إنه يتمتع نفسه بهواء الأرض
ويسير فيها ويتعهد بها وكل شخص يستطيع أن يكون أكبر مالك
في العالم إذا ارتفع عن مخاوف الناس وترهاتهم في اغتصاب الأرض

ورأى أن الأرض كلها إنما خلقت ليمتع بها . وكل شخص يستطيع أن يتمتع بها ولا يمنعه من ذلك قانون سخيف ورثناه عن جدودنا السارقين المغتصبين ...

ثم تملكه قلق شديد . ماذا يفعل بهذه الأطنان كلها ؟ .. وأخيراً قرر أن يهبها إلى طلبة مدرسة الهندسة لأنهم أحق الناس بتفهم مقاييس الأرض واتساعها . فكتب خطاباً إلى ناظر المدرسة يخبره فيه بأنه عزم على أن يهب المدرسة كل أطنانه (البالغ قدرها ألف فدان بما فيها من المنازل والعزب والمجازن والاصطبلات والأجران والمحاريث والظلمبات والمواشى من كافة أصنافها)

ولم ينتظر رداً . وبعد أسبوع واحد خطرت له هذه الفكرة من جديد لأنه نسي كتابة الخطاب الأول ونسى أنه فكر فيها من قبل . والغريب أن خطابه الثانى كان صورة تنطبق على خطابه الأول . كلمة أمام كلمة . وسطراً بسطراً .

وكان بعد ذلك يرسل فى كل أسبوع خطاباً بهذا المعنى إلى ناظر المدرسة .

— — —

لم يبق أمل فى شفائه . ولم يبق أمام رؤسائه إلا أن يخبروا الوزارة فى القاهرة فصرحت له بأجازة مرضية طويلة ، ، وأشارت بإرساله إلى مستشفى المجاذيب (بالأورليك نمرة ...) ولما كلف رئيسه أحد

الموظفين بتبليغه هذا القرار امتنع ، وأبى كل موظف آخر أن يفتح
عسن في هذا الموضوع ... من يجرؤ أن يذكر له سيرة مستشفى
المجاذيب ؟

وأخذ محسن يزداد في (تنكيته) مع الموظفين ويمازحهم ويصحب
كل كلمة بلطمة منه على كتف محدثه ...
وكان قرار الجميع أن تنفيذ أمر الوزارة أصبح لا مفر منه ،
بل يجب أن ينفذ بسرعة ..

وانتهز رئيسه (الذى كان لا يطمئن على نفسه طالما صوت محسن
المرتفع يرن في أذنيه) فرصة غيابه وجمع إخوانه معه وتشاوروا
في الأمر ولبثوا منعقدين ساعات طويلة قرروا بعدها أمراً وخرجوا
وابتسامة صفراء لعينة لا يبعثها إلا الخوف تدور على شفاههم .

وفي اليوم التالي عندما جاء محسن طلبه رئيسه ، قائما دخل عنده أجلسه
على مقعد وقال له (إننى أعلم أنك طيب القلب وتشفق على المساكين
وأنا قررت أن أكلفك بمأمورية دقيقة وأرجو منك أن تكتفها ولا
تذكرها لأحد كان !

هذه المأمورية هي أن زميلك المسكين داود أفندى أصيب بنوع
من الهستريا . وقد كلفتنا الوزارة أن نرسله إلى مصر حتى يتسلمه
مستشفى المجاذيب . ولكنى رأيت من عدم اللوق أن نفتح في الموضوع
صراحة وعزمت على أن أرجو منك لأجل خاطره وصداقتك له -
أن تصحبه معك إلى مصر وفي اللحظة ستجد عمال المستشفى في انتظاره ..)

فقطب محسن - وسعل سعالاً خفيفاً وظهر التردد في نظراته
فاحتلجت عينه ثم طفق يسأل رئيسه (وكانت يد الرئيس ترتعش
أسئلة كثيرة .

... لم ألاحظ على داود أفندى شيئاً ؟

... هل جنونه هادىء ؟

... وماذا أفعل لو هاج منى في الطريق ؟

ثم أصابه نوع من الذهول وكأنه يذكر أموراً بعيدة في الماضي
وهذا ما كان يلور في ذهنه فعلاً فإنه أخذ يجهد نفسه في تذكر حوادث
حصلت من داود أفندى . فتذكر أنه ذات يوم أوقف عمله وارتبك
وسأل جميع الموظفين عن نظراته مع أنها فوق أنفه وعند ذلك وضع
محسن ذراعه على حافة مكتب رئيسه وأسند رأسه عليها واندفع في
ضحكة عالية طويلة .. وكان الرئيس يرتعش وكاد يخرج من الغرفة
لأن أعصابه اضطربت فجأة لدى سماعه هذه الضحكة .

ولما عاد محسن إلى مقعده ظهر الجهد ومظاهر الاهتمام على وجهه
وحركاته . فكانت أوامره (للحاجب) مملوءة قسوة وشدة .
وأكثر من تعهد ربطة رقبته وطربوشه . ثم يرسل نظرات جانبية
طويلة وتلمع عيناه بها ، إلى حيث يجلس داود أفندى . وأخذ يراقبه
كيف يحرك رجله حركات صغيرة كمن يضبط نغماً موسيقياً يغنيه
سراً . ثم انتقل بجانبه فجأة ووضع يده على كتفه وقال له في لهجة
مملوءة بالطيبة .

— هل تحضر معى للفسحة بمصر ؟

— لماذا ؟ وما دخلك أنت فى ذلك ؟

فقال محسن وقد ظهر على وجهه المجهود الذى يبذله ليعتقن (بلغه) وهو مجهود من يدارى عن المحنون اعتقاد محدثه فى جنونه. وهو ليس بالأمر السهل الهين فى نظر محسن .

— لا لشيء سوى أننى أعلم أنك لم تزر مصر منذ مدة طويلة وأننى مسافر هناك فأحببت أن نكون سويا ، فلماذا تغضب !
فزجر داود أفندى ونظر له ثم قال :

— حسن .. ومتى ترغب أن تسافر ؟

— إذا أردت فالآن حالا .

نهض داود معه . فوضع محسن ذراعه فى ذراعه كجندى يقود مجرما وقبل أن يخرج من الغرفة أدار رأسه لباقي الموظفين ونظر لهم نظرة ثم عن شدة فرحه بانتصاره وسروره باتقان الحيلة وذكائه ومهارته .

— — —

جلسا ، أحدهما قبال الآخر فى القطار . لا تفارق نظرة محسن الدقيقة اللامعة حركات داود . فهو متنبه لأقل حركة تبلى منه . حاول داود أن ينظر من النافذة فمنعه محسن بقوله .
كن عاقلا معى ولا تنظر من النافذة .

ثم تذكر أنه ارتكب بقوله هذا غلطة كبرى وأنب نفسه وراح يشرح لداود معنى كلمته من أنه من المجازفة أن ينظر المرء أثناء سير

القطار من الناقله ثم اتزوى محسن في ركن المقعد آسفا مغضبا من نفسه وهو يقول سرا : لن يجد أمامه شخصا غيرى يسوق جنونه عليه ...)

كان داود أفندى رجلا طيبا . رضى أن يلعب هذا الدور مع محسن لحبه إياه . ولكنه رغم تألمه الشديد لموقفه هذا كان يكتف ضحكات كثيرة ومحاذير ألا يلتقى نظره بنظر محسن حتى لا يتلمس به معاني السخط والاحقار لأنه يلهو به ويلعب به كما يلعب الرجل بالطفل الصغير . في حين أن محسن كان يعتقد أن داود يهرب بنظراته لأنه خائف منه وأن هذا الخوف دليل على جنونه .

وصل القطار إلى المحطة فقام محسن نشطا مسرورا لأن مأموريته انتهت بسلام وأسرع إلى القبض على ذراع داود قائلا له (الزحام شديد فلنكن هويا) ثم تزلأ . فرأى محسن وجوها كثية تنظر إليه ومدت نحوه عشر أيد قوية وقبض عليه بينما كان داود مطلق السراح . في هذه اللحظة فقد محسن منطقه — ان كان له منطق وكادت رأسه تلهب تحت تأثير فكرة واحدة (هل هؤلاء الناس كلهم مجانين فيقبضون على أنا ؟)

ولكنه أخذ يصرخ فجأة (المجنون أهو المجنون أهو ، مش أنا !) فكان هذا أكبر دليل لدى جمهور المتفرجين وموظفى المستشفى على جنونه . ثم ألقيوه في عربة وسارت به وهو مقيد يكي غيظا وحنقا ويصرخ (يا مجانين يا مجانين ! !) .

(جريدة السياسة ، ١٤/١/١٩٢٧ ص ٣)

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
البوسطجى	١٣
قصة فى سسجن	٧٧
أبر فودة	١٠١
حياة لص (★)	١٣٧
قهوة ديمترى (★)	١٤٩
من المجنون ؟ (★)	١٦٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٢/١١٤٠٥

I.S.B.N 977-01-3632-8

.....

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٣٠٠ قرش

To: www.al-mostafa.com